ديوان ابن دراج القسطلى

يتسم الشعر العربى فى مختلف عصوره بسمة المحافظة والحرص على اتباع التقاليد المأثورة ، وقد أخذ عليه ذلك من بعض الوجوه ، وزين لبعض النقاد أن يتهموه بضيق المجال والجمود ، ولكن الواقع أن طبيعة المحافظة والاستمساك بالتقاليد البادية فى الشعر العربى لا تفضمنه بوجه عام ، ولا تزرى به ، وقد صانته من الامعان فى الاسفاف والابتذال حينما عدت العوادى على العالم الاسلامى ، وأصابه الضعف ، ولفته غياهب الظلام ، **والمحافظة واحترام التقاليد فى الشعر شىء ، والاتباع الأعمى وفقدان الشخصية شىء آخر ، والثورة على التقاليد فى الأدب قد لا يكون مردها على الدوام الى حب الاستقلال ، والرغبة فى اقتحام المجاهل ، وغزو العوالم الجديدة ، فقد يكون سببها العجز والتقصير ، وقلة الصبر على الدرس والتحصيل ، والياس من الاتقان والتجويد** ، وقد كان أعلام المجددين فى الأدب الغربى الذين استطاعوا أن يحدثوا حدثا ، ويأتوا بشىء ذى قيمة ممن حذقوا الأدب ، واتقنوا دراسته ، وتشبعوا بروحه فى مختلف ادواره ومتباين عصوره .

والعناية بالتقاليد فى الأدب مسألة هامة ، لأنها تتضمن تقوية الحاسة التاريخية ، وتوسيع حدود التجارب الانسانية ، ومحاولة ربط الحاضر بالماضى ، وهذا الاتصال بين حياة الغابرين السابقين وحياة المحدثين اللاحقين يمكننا الى حد ما من تحديد مكانة الشاعر أو الكاتب ، ووزنه وتقدير أدبه ، وفى التجاوب بين الماضى والحاضر مجال للجدة والطرافة ، فالحاضر يؤثر فى نظرنا الى الماضى ، والماضى يؤثر كذلك فى الحاضر وفهمنا له .

وقد لوحظ فى الأدب الأندلسى بوجه عام أنه مر بمرحلتين بارزتين ، كان فى المرحلة الأولى شديد المحافظة مسرفا فى التعلق بالتقاليد ، وقد انتهت هذه المرحلة على وجه التقريب فى القرن الخامس الهجرى بعد سقوط الدولة الأموية فى الأندلس وبدأت المرحلة الثانية التى انتهت باجلاء المسلمين عن اسبانيا ، وفى خلال تلك المرحلة قويت ثقة الأدب الأندلسى بنفسه ، واعتز بشخصيته ، فأحدث ضروبا من التجديد فى بحور الشعر وأوزانه وقوافيه وصوره وأشكاله ، ولكنه ظل مع ذلك محافظا على الكثير

حققه وعلق عليه :

الدكتور محمود على مكى

طبع على نفقة :

صاحب السمو العالم الجليل الشيخ

على بن عبدالله آل ثانى

منشورات المكتب الاسلامى بدمشق

٦٣٢ صفحة - ١٧×٢٤ سم

بقلم رئيس التحرير

من تقاليد الأدب العربى ، **ولا نزاع فى أن الاتجاهات الأدبية تتأثر بالأحداث السياسية ، والأحوال الاجتماعية بوجه عام ، وقد كان العرب فى بادىء أمرهم قلة فى بلاد الأندلس بين عناصر متباينة ، وأخلاط شتى ، وفى مثل هذا الموقف المحفوف بالأخطار كانت ترغمهم غريزة حب البقاء على شدة المحافظة على لغتهم ، وسائر مقومات شخصيتهم ، ومن ثم شدة استمساكهم بالتقاليد وتشبثهم فى المحافظة عليها ،** وفضلا عن ذلك فقد كانت الأسرة التى اضطلعت بأعباء الحكم وتوجيه السياسة فى المرحلة الأولى هى الأسرة الأموية المعروفة بتعصبها للعرب ، ولكن حينما أقبل القرن الخامس كانت اللغة العربية قد ذاعت وتوطدت الى حد لا بأس به فيما أرجح باسبانيا ، وأخذت تظهر من ناحية أخرى نزعة تشبه النزعة القومية ، وربما كانت أقرب الى الوطنية المحلية ، فقلل ذلك من حدة سلطان التقاليد ، وان لم يفر بالخروج الصارخ عليها ، والانطلاق المسرف من قيودها .

وفى طليعة شعراء الأندلس الذين مثلوا المرحلة الأولى أقوى تمثيل الشاعر الأندلسى البارع القدير أبو عمر أحمد بن محمد القسطلى ، أحد شعراء الأندلس المعدودين ، والمحافظة على التقاليد ظاهرة فى شعره القوى الآسر ، والذى يدل على تمكين من اللغة ، وتصرف فى فنون البيان ، ومعرفة صميمة بماضى الأدب العربى الذى تقدمه قليلة النظير .

وقد أعجب به معاصروه ، والنقاد القدامى أيما اعجاب ، ووفوه حقه من التقدير ، فالشاعر الناقد ابن شهيد الذى عاصره يقول عنه « والفرق بين أبى عمر وغيره ان أبا عمر مطبوع النظام ، شديد أسر الكلام ، ثم زاد بما فى أشعاره من الدايل على العلم بالخبر واللغة والنسب ، وما تراه من حوكه للكلام ، وملكه لأحرار الألفاظ ، وسعة صدره ، وجيش بحره ، وصحة قدرته على البديع ، وطول طلعته فى الوصف ، وبغيته للمعنى وترديده ، وتلاعبه به وتكريره ، وراحته بما يتعب الناس ، وسعة نفسه فيما يضيق الأنفاس »

وأبو حيان المؤرخ الأندلسى الكبير يقول عنه « ابو عمر القسطلى سباق حلبة الشعراء المعاصرين ، وخاتمة محسنى اهل الأندلس

أجمعين ، وكان ممن طرحت به تلك الفتنة الشنعاء واضطرته الى النجعة فاستقرى ملوكها أجمعين ما بين الجزيرة الخضراء فسرقسطة من الثغر الأعلى يهز كلا بمديحه ، ويستعينهم على نكبته وليس منهم من يصغى له ، ولا يحفظ ما أضيع من حقه » .

وقد ترامت شـهرة القسطلى الى المشرق فذكره الثعالبى فى يتيمة الدهر ــ وكان معاصرا له ــ قائلا « كان بصقع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام ، وهو أحد الفحول ، وكان يجيد ما ينظم ويقول » ، وقد نقل فى الجزء الثانى من اليتيمة بضع قصائد له : وابن خلكان يقول عنه فى وفيات الأعيان « وهو معدود فى تاريخ الأندلس من جملة الشعراء المجيدين والعلماء المتقدمين » .

وابن بسام يقول عنه فى الذخيرة « كان أبو عمر القسطلى وقته لسان الجزيرة شاعرا وأولا حين عد معاصريه من شعرائها المشهورة ، وآخر حاملى لوائها ، وبهجة أرضها وسمائها ، وأسوة كتابها وشعرائها ، له عقد فخرها المحمول وسهم ، وبه بدىء ذكرها الجميل وختم ، حل اسمه من الأمانى محل الأنس ، وسـار نظمه ونثره فى الأقاصى والأدانى مسير الشمس ، وكانت الشام والعراق أدنى خطى ذكره » .

وقد ذكره ابن خلدون فى مقدمته فى الفصل الذى عقده ليوضح ان أهل الأمصار قاصرون فى تحصيل الملكة اللسانية البيانية وعده أحد من قويت فيهم هذه الملكة بكثرة المعاناة والامتلاء من المحفوظات ، اللغوية نظما ونثرا ، مثل ابن حيان المؤرخ وامام أهـل الصناعة فى رأى ابن خلدون ومثل ابن عبد ربه .

اما النقـاد المحدثون فانهم لم يقبلوا احكام النقـاد القدامى على أنها مسلمات ، فالدكتور أحمد ضيف يقول عن القسطلى « لم يكن شاعرا فطريا يقول الشعر عن شـعور صحيح أو دافع نفسى ، وانما هو مقلد بارع حتى فى المعانى التى لم يشعر بها نفسه ، وفى وصف الأمكنة التى لم يرها الا فى كلام الشعراء ، فهو من الذين اتخذوا الشعر صناعة لفظية وآلة من آلات الكلام ليمدح به من يريد » .

والدكتور أحمـد أمين يقول عنـه وعن ابن شـهيد وابن هانىء « وفى الحقيقة أنك اذا قرات شعر هؤلاء الثلاثة ادركت أن شعرهم من رأسهم ، على حين أنك تشعر أن شعر الغزال وابن زيدون .. وأمثالهما من قلبهم لا من رأسهم وفرق بين الصوت القوى الأقرع الذى يخرج من الرأس ، وبين الصوت الحنون الذى يخرج من القلب » .

والتقديرات الأدبية من الأحكام القيمية التى قد تختلف فيها الآراء تبعا لاختلاف المشارب والأذواق ، وأرجح الرأى الذى ذهب اليه الدكتور أحمد هيكل فى كتابه القيم عن الأدب الأندلسى ، فهو يقول « والذى يدل عليـه ما بقى من شعر القسطلى أنه كان شـاعرا يؤثر الاتجاه المحافظ الجديد الذى كان على رأسه فى المشرق أبو الطيب المتنبى ، على ان القسـطلى لم يكن كالمتنبى فى حكمته وعمق معانيه ، وانما كان مثله فى التمسك بعمود الشعر العربى القـديم ، وايثـار المنهج التقليدى فى بنـاء القصيد ، وتفضيل الصور المنتزعة من البيئـة العربية البدوية ، واختيار اللفظة الجزلة والعبارة الفخمة والأداء الرنان ، كل ذلك مع صقل الشعر بالثقـافة ، واثرائه بالمعرفة ، وتهـذيبه بما وصـل اليه المجتمع الاسلامى من حضارة ، فالقسطلى كابن هانىء فى ايثـاره الاتجاه المحافظ الجديد ، وتفضيل مدرسة المتنبى على ما سواها من مدارس ، غير أن القسـطلى يخالف ابن هانىء أيضـا ، فهو معتدل الفكرة ، واضح العبارة ، قريب الخيال ، وليس كابن هانىء فى حـدته الفنيـة ، ولا فى مذهبيته العقيدية » .

وقد ولد ابن دراج القسـطلى فى سنة ٣٤٧ هجرية بقسـطلة أو قسطلة دراج التى نسب اليها ، وقد اختلفت اراء الباحثين حول تحديد موقعهـا ، فالحميرى فى الروض المعطار يقول عنها انها « قرية فى غرب الأندلس منها أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج القسطلى ، ودراج هو الذى تنسب اليه القرية فيقال قسطلة دراج ، وابن سعيد ــ كما ذكر الدكتور مكى فى المقدمة القيمة التى كتبها للديوان ــ يلح على كون قسطلة

من عمل جيان – وهى أقرب الى شرق الأندلس منها الى غربها – ولكن معظم الباحثين يرجحون ما ذكره الحميرى ، وهذه القرية فى هذا العصر داخلة فى حدود البرتغال من أعمال منطقة الجرف المأخوذة من كلمة الغرب العربية وهى على شاطىء المحيط الأطلسى ، ويميل الدكتور مكى الى ترجيح رأى ابن سعيد ، وهو ان قسطلة دراج موطن أبى عمر من عمل جيان وذلك لثقته من معرفة ابن سعيد بجغرافية اقليم جيان والمناطق المجاورة لها فضلا عن أنه اقدم من الحميرى .

ولم تذكر المراجع العربية شيئا عن نشأة ابن دراج وأساتذته الذين أخذ عنهم ، والظاهر انه لم يلتفت اليه ويعنى بذكره الا بعد اتصاله بالحاجب المنصور بن أبى عامر ، ومهما يكن من الأمر فان تلك الفترة التى ولد فيها القسطلى ونشأ كانت من خير الفترات فى تاريخ الأدب الأندلسى ، فقد رافقت العهد الأخير من حكم الناصر وخلافة الحكم المستنصر وجانبا من خلافة هشام المؤيد ، وكانت الدولة الأموية الأندلسية قد استقرت قواعدها ، وعظمت فى النفوس هيبتها ، على أثر الجهود العظيمة التى بذلها الخليفة الناصر لفرض طاعته ، والقضاء على الثورات ، وتوطيد دولته ، وازدهرت الحياة الاقتصادية تبعا للاستقرار السياسى ، وغير عجيب أن يتبع ذلك تقدم فى الحياة الأدبية وعالم الفكر ، واصبحت قرطبة فى ذلك العهد نجعة القصاد ، وموئل العلماء والأدباء والشعراء .

ويقول الدكتور مكى ان منطقة جيان بوجه خاص كانت تربة خصبة للشعر والشعراء ، فمنها نشأ أول شاعر اندلسى تميز بالأصالة وقوة الشخصية ، وهو يحيى بن الحكم الغزال ، وبطبيعة الحال كان ابن دراج فى مستهل حياته يتبع طريقة الدراسة التى كانت مألوفة فى ذلك العصر ، وهى حفظ القرآن ودراسة مبادىء النحو والصرف واللغة والأدب والأخبار والأنساب والفقه فى حلقات الدرس التى كان يعقدها العلماء فى الجوامع ، وليس من المستبعد أنه كان فى عهد دراسته وتكوينه الأدبى يتردد من الحين الى الحين على قرطبة ليفيد علما وأدبا وتجربة فى تلك العاصمة الزاهرة الحافلة .

ويمكن أن نستدل من شعر ابن دراج على ان دراسته الأدبية كانت دراسة وافية شاملة عميقة مستوعبة ، وبرغم أنه ينتسب الى أسرة منحدرة من أصل بربرى ينتمى الى قبيلة صنهاجة الشهيرة الا أن شعره يدل على سليقة عربية سليمة ، واستعداد أدبى صميم زادتها جدية الدراسة والعكوف على الاطلاع ومعرفة اوابل اللغة وشواردها .

والظاهر أن القسطلى حينما نضجت شاعريته ، وقويت ثقته بنفسه ، رأى أن يقدم على اقتحام بلاط الحاجب المنصور بن أبى عامر ، وهو يعلم أن سدة المنصور كانت مزدحمة بالشعراء والنقاد واللغويين والنحاة والفقهاء ، وكان المنصور بن أبى عامر على كثرة اشتغاله بالغزوات الحربية والمشكلات السياسية معنيا بالأدب والثقافة ، محبا للعلم ميالا الى تكريم الكتاب والشعراء والعطف عليهم ، ولكنه فى الوقت نفسه كان لا يسمح لشاعر او عالم بالمثول بين يديه الا بعد أن تختبر موهبته ، ويثبت امتيازه وتفوقه ، وقد روى لنا صاحب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » الاختبار القاسى الذى أجرى على صاعد البغدادى حين قدومه الى قرطبة وغشيانه بلاط المنصور وحضوره مجلسه الأدبى العامر .

ويقول الدكتور مكى « **ان امتحان الشعراء بين يدى المنصور كان يتم على صور مختلفة ، اما ان يفاجأ الشاعر بالمنصور يقترح عليه ارتجال قطعة فى موضوع يعن له ، وكثيرا ما كان الأمر يتعلق بوصف لشىء من اثاث أو زهر أو فاكهة مما يوجد فى مجلسه ، أو وصفا لحادثة طارئة تقع تحت سمع المجتمعين وبصرهم ، واما ان يقترح على الشاعر أن يعارض قصيدة مشهورة لشاعر كبير من شعراء المشرق ، واما ان يعقد ندوة تضم الشاعر وبعض نقاده او المعترضين عليه للجدل والمناظرة** » ، وقد كان للمنصور مجلس معروف فى يوم معين من كل أسبوع «يجتمع فيه أهل العلوم للكلام فيه بحضرته ما كان مقيما بقرطبة » ، وكثيرا ما كان يتم اختبار الشعراء

فى أمثال هذه المجالس ، ويتوقف على هــذه الامتحانات مصير الشاعر ، فاذا اثبتت التجربة قوة عارضته ، وحضور بديهته ، وذرابة لسانه فى الجواب ، ورسوخه فى علوم اللغة والأدب ، استحق ان يثبت فى « ديوان العطاء » ، وهكذا يصبح « شاعراً رسمياً » يجرى عليه راتب منتظم ، وقد كان للشعراء المثبتين فى هـذا الديوان « زمام » على ما يذكر الحميدى ، ويبدو أن هذه الكلمة يقصد بها ترتيب للشعراء فى طبقات تتفاوت باختلاف مدى اجادتهم ، وقد كان زمام الشعر موكولا فى أيام المنصور الى عبد الله بن مسلمة ، وكان رئيسا كاتبا جليلا ناقدا للشعر ، وعلى يديه كانت تخرج صلات الشعراء ورسومهم ، وعلى ترتيبه كانت تجرى أمورهم » .

وحينما اتصل ابن دراج بالمنصور وضعت فى طريقه العقبات ، واستهدف لأمثال هـذه الاختبارات ، وقد اقترح عليه مرة ان يرتجل أبياتا فى وصف طبق تفاح أحيط بأزهار البهار فنظم على البديهة الأبيات الآتية :

يا حبذا خجل التفاح فى طبق
منضـد بجنى الزهر متسق
فيه عميون بهار قد احطن به
نواظرا بجفون العاشق الأرق
كأن ما احمر من تفـاحه خجلا
بدر بدا قطعا من حمرة الشفق
فى مجلس الملك المنصور يانعة
كانما غذيت من جوده الغدق

والشعر المرتجل فى أغلب الأحيان ليس من جيد الشعر مهما كانت قدم الشاعر ، وقد كان المتنبى كثير الاستهداف لمثل هذه الاختبارات فى مجلس سيف الدولة وغيره من الأمراء والأعيان الذى كان يقصدهم قبل اتصاله بسيف الدولة وبعد اتصاله به ، ومعظم شعره المرتجل انزل منزلة من شعره الذى كان يسهر جفنه فى تجويده واحكامه .

وكانت أول قصيدة انشدها ابن دراج فى حضرة المنصور قصيدته التى يقول فى مطلعها

اضاء لها فجر النهى فنهاها
عن الدنف المضنى بحر هواها

وقد استهلها بالفزل جريا على الطريقة التقليدية فى البدء بالفزل والتخلص منـه الى المديح ، وقد اشار فى هذه القصيدة الى رحلته من بلده قاصدا المنصور وتركه زوجته وأسرته فقال

ولله عزمى يوم ودعت نحـوه
نفوسا شجانى بينها وشجاها
وربة خـدر كالجمان دموعها
عزيز على قلبى شطوط نواها
وبنت ثمـان ما يزال يروعنى
على النأى تذكارى خفوق حشاها
وموقفها والبين قد جد جده
منـوطا بحبـلى عاتقى يداها
تشكى جفاء الأقربين اذا النوى
ترامت برحلى فى البـلاد فتاها
واقسم جود العامرى لير جعن
حفيا بها من كان قبل جفـاها
ورامت ثـواء من أب وثواؤه
على الضيم برح من شمات عداها
وأنى لها مثوى أبيها وقد دعت
بوارق كف العـامرى أباهـا
ينى اليـك اليوم عنى فانهـا
عزائم كف العـامرى مداها

والظاهر انه بعد انشاد هذه القصيدة التى اعجب بها المنصور من غير شك حاول الحساد والمنتفعون من كرم المنصور ان يبعدوا هـذا المنافس الجديد بالنيل من شاعريته ، والتشكيك فى قدرته ، وكان أقرب طريق الى ذلك اتهـامه بسرقة الشعر وانتحـاله ، وقـد اضطر ذلك القسطلى الى انشاء قصيدته البائية التى اشار فيها الى ذلك ومطلعها :

حسبى رضاك من الدهر الذى عتبا
وجـــود كفيك للحظ الذى انقلبـا

وقد أشار الى هذا الاتهام ودافع عن نفسه بقوله :

حاشى لقدرك ان أزجى الثنــــاء له
دعوى واهدى اليــــه الدر مفتصبا
لكنها هـم انشــأتها نعما
نشاكها بنفيس القـــدر فاصطحبـا
ولست اول من اعيت بدائعـــه
فاستدعت القول ممن ظن أو حسبا
ان امــرأ القيس فى بعض لمتهـم
وفى يديه لواء الشـــعر ان ركبـــا
والشعر قد أسر الأعشى وقيـــده
خبرا وقد قيل «والأعشى اذا شربا»
وكيف اظما ــ وبحرى زاخر فطنا ــ
الى خيال من الضحضاح قد نضبـــا
فان نأى الشــــك عنى أوفهـــاالندا
مهيـــأ لجلى الخبر مرتقبـــا
عبد لنعمـــاك فى كفيه نجم هــدى
سار بمدحك يجلو الشــك والريبـــا
ان شئت أملى بديع الشـــعر أو كتبـــا
او شئت خاطب بالمنثور او خطبـــا
كروضة الحزن أهدى الوشى منظرها
والمــاء والزهـــر والأنوار والعشبا
أو سابق الخيل اعطى الحضر متئدا
والشـــد والكر والتقريب والخببا
سبكته عامرى السـنخ منقطعـــا
اليك من ســـائر الآمال منقضبـــا
فحق للعلم ان يزهى به فرحا
وحق للشـــعر ان يشـدو به طربا

وقد كانت قدرة ابن دراج فى النثر لا تقل عن قدرته فى الشعر ، والفصول التى اختـارها ابن بسـام فى الذخيرة من نثره تؤيد ذلك ، وقـــد استهلها ابن بسام بقوله « وقد أتيت من شعره بما يبهر نبرات الألباب ، ويظهر خفيات الأسباب ، ومن نثره ما يبهر العقول ، ويبـــاهى الفـــرد والحجول ، ويسـامى التيجـــان والأكاليل ، ويستأهل التقليد والتأويل » وقليل من الشعراء من استطاع أن يجمع بين التفوق فى كتابة النثر ونظم الشعر ، فالبحترى والمتنبى مثلا وهما فى طليعة شعراء الأدب العربى لا نكاد نعرف لهمـا نثرا ، وقد كان البحترى يرد على بعض الرسائل التى ترد اليه من اصـــدقائه بالشعر ، وقدرة ابن دراج فى النثر ساعدت على اتخاذه من كتاب الرسائل فى ديوان الانشاء .

وقد طلب اليه المنصور معارضته قصيـــدة ابى نواس فى مدح الخصيب حينما قصده فى مصر وكان المنصور شـــديد الاعجـــاب بها ، فنظم ابن دراج رائيته المشهورة وقد ارتفع فيهـــا الى مستوى ابى نواس ولم يقصر عن مداه ، ومطلـع قصيدته :

دعى عزمات المستضام تسـير
فتنجد فى عرض الفلا وتغور

وقد ابدع فيها فى وصف وداعه لزوجتـــه وطفله الذى كان فى المهد بقوله :

ولما تدانت للوداع وقـــد هفا
بصبرى منهـــا أنة وزفير
تناشد فى عهـــد المودة والهوى
وفى المهد مبغوم النداء صغير
عيى بمرجوع الخطـــاب ولفظه
بموقع أهواء النفوس خبير
تبوأ ممنوع القلوب ومهـــدت
له أذرع محفوفة ونحـــور
فكل مفـــداة الترائب مرضع
وكل محيـــاة المحاسن ظير
عصيت شفيع النفس فيها وقادنى
رواح لتد آب السرى وبكور
وطار جناح الشوق بى وهفت بها
جوانح من ذعــر الفراق تطير
لئن ودعت منى غيـــورا فاننى
على عزمتى من شجوها لغيور

ويمضى فى وصف رحلته قائلا :

ولو شاهدتنى والصواخد تلتظى
على ورقراق السراب يمور
اسلط حر الهاجرات اذا سطا
على حر وجهى والأصيل هجير
واستنشق النكباء وهى بوارح
واستوطىء الرمضاء وهو تفور
وللموت فى عيش الجبان تلون
وللذعر فى سمع الجرىء صفير
لبان لها انى من الضيم جازع
وانى على مض الخطوب صبور

وقد قضى ابن دراج فى كنف المنصور وولديه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن قرابة سبعة عشر عاما ، وفى الديوان مجموعة من القصائد التى نظمها فى مدح المنصور والاشادة ببطولته ، ووصف المعارك التى خاض غمارها ، وعقد له فيها لواء النصر ، والحصون التى اقتحمها ولم تصده عنها مناعتها ، وهى تذكرنا بوصف المتنبى لجهاد سيف الدولة ومواقفه المأثورة فى صد عادية الروم ، وكان اعجاب ابن دراج بالمنصور وتقديره لشخصيته الفلابة المنيفة لا يقل عن حب المتنبى لسيف الدولة واكباره لشجاعته وحسن تدبيره وسداد رايه ، **والشعراء بحسهم المرهف مطبوعون على الاعجاب بالبطولة ، ونوادر الخلال الكريمة ، والشيم الغراء** ، ولا نزاع فى ان هذا الوصف الملحمى يلقى جانبا من الضوء على حياة المنصور وتاريخ عصره ، وقد صاحب المنصور فى الغزوة المشهورة التى وجهها الى شنتياقب فى سنة ٣٨٧ وقد وصف ابن دراج هذه الوقعة فى رسالة مشهورة كما سجل هذا الانتصار فى احدى قصائده العامرية .

وقد ظل ابن دراج على ولائه للبيت العامرى بعد وفاة المنصور فى سنة ٣٩٢ ومدح ابنيه بقصائد عدة حتى سقطت الدولة العامرية ، وقد مدح وزير عبد الملك بن المنصور المسمى عيسى ابن سعيد اليحصبى المعروف بابن القطاع ، وقد بدأ هذا الوزير حياته كاتبا للمنصور ، والظاهر ان ابن دراج لم يجد عنده ما كان يؤمله من حسن الرعاية وجميل التقدير ، وقد عاتبه ابن دراج فى قصيدته اللامية التى استهلها بقوله :

أفى مثلها تنبو أياديك عن مثلى؟
وهذى الأمانى فيك جامعة الشمل

ولما اتهم ابن القطاع بالسعى فى هدم الدولة العامرية ، والعمل على تنصيب الأموى هشام ابن عبد الجبار وبادر عبد الملك بالقضاء على الفتنة وقتل ابن سعيد لم يستطع ابن دراج اخفاء شماتته بمصرعه فهنأ المظفر بقصيدة مطلعها :

شكرا لمن اعطاك ما اعطاكا
رب اذل لملك الاملاكا

ومنها فى الاشارة الى مصرع ابن سعيد :

قل للمصرع لالما من صرعة
وافيتها بغيا على مولاكا
تبا لسعيك اذ تسل معاندا
لخلافة السيف الذى حلاكا
حييت لوتك انفس مظلومة
كانت منيتهن فى محياكا

وقد طغت الفوضى وتعاقبت الفتن بعد سقوط الدولة العامرية بمصرع عبد الرحمن بن المنصور سنة ٣٩٩ واضطربت الأمور اضطرابا شديدا ، وحار الشعراء والأدباء فى أمرهم ، واضطر ابن دراج الى الخضوع للأمر الواقع ومصانعة الظروف القاسية ، فلما اعلن المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار ثورته توجه اليه ابن دراج مادحا بقصيدة مطلعها :

قل للخلافة قد بلغت مناك
ورايت ما قرت به عيناك

وقد وصف سوء حالته وحرج موقفه فى هذه القصيدة بقوله :

وانا الشريد وظل عزك موئلى
وانا الأسير وفى يديك فكاكى
ادب اضاء المشرقين وتحته
حظ يئن اليك انة شاك

ولكن المهدى لم يلبث قليلا حتى ثار عليه سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين وانضم اليه البربر ، وانتصر المستعين على المهدى فى معركة فنتيش سنة ٤٠٠ وهرب المهدى الى طليطلة ، واستمر الصراع بينهما حتى قتل المهدى بتدبير انصاره ، واعتلى المستعين عرش الخلافة مرة ثانية فى سنة ٤٠٣ ، وكان ابن دراج فى خلال تلك الفتنة الهوجاء وهذا الصراع الدامى والفوضى المستحكمة الذى استمر ثلاث سنوات يرجو انفراج الأزمة وانقشاع الغمة ، وظل فى قرطبة ، فلما جاء المستعين الى قرطبة وقد ساءت حالة ابن دراج قصده مادحا فيمن قصده من الشعراء وانشده داليته التى يقول فى مطلعها :

شهدت لك الأيام أنك عيدها
بك حن موحشها وآب بعيدها

واتبعها بقصيدة ثانية وثالثة ولكنه لم يظفر من المستعين بطائل ، ومدحه بعد ذلك بأبيات بث فيها أله وشكواه ، وهى تبين لنا الى اى حد بلغت أحواله من السوء ، فهو يقول فى مطلعها :

بلغت عبدك الخطوب مداها
يوم تبليغك النفوس مناها

ولما يئس من سليمان قصد القاسم بن حمود أحد وزرائه واسناده فلم يجد لديه ما كان يؤمل، فقرر مغادرة قرطبة الى اخيه على بن حمود ، وانشده لاميته التى مطلعها :

لعلك يا شمس عند الأصيل
شجيت لشجو الفريب الذليل

وكان حينذاك قد قارب الستين ، وعاد من سبتة وقد انقطع رجاؤه من الحموديين ، ورأى أن يقصد الموالى العامريين من الصقالبة فى شرق الأندلس ، وتنقل فى تلك الفترة بين المرية وبلنسية وشاطبة وطرطوشة مسترفدا أمراء هذه المدن ، وقد مدح خيران العامرى الذى استولى على المرية من سنة ٤٠٥ الى سنة ٤١٩ بقصيدته النونية المشهورة ومطلعها :

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران
وبشراك قد آواك عز وسلطان

وقد صور فى هذه القصيدة الويلات التى حلت بالأندلس من جراء الفتنة ، وفيها يقول :

الأهل الى الدنيا معاد وهل لنا
سوى البحر قبر او سوى الماء اكفان
وهبنا رأينا معلم الأرض هل لنا
من الأرض مأوى اومن الانس عرفان
وصرف الردى من دون ادنى منازل
تباهى الينا بالسرور وتزدان
تقسمهن السيف والحيف والبلى
وشطت بنا عنها عصور وأزمان

وبعد أن خابت آماله فى الأمراء العامريين ولم يشفع له عندهم صلته القديمة بمولاهم المنصور اتجه الى سرقسطة لائذا بحمى منذر بن يحيى التجيبى القائم بالأمر فيها وذلك بعد أن ظل ثمانى سنوات مشردا يعانى الفاقة والحرمان ، وقضى عشر سنوات فى بلاط منذر وابنه يحيى ، ونعم خلال هذه المدة بشىء من الهدوء والاستقرار مكنه من أن ينظم الكثير من قصائده العصماء فى مدحهما ، وكان منذر وابنه يحيى يحسنان الى حد ما تذوق الشعر وتقديره ، ولم تخل قصائده فى تلك الفترة من الحنين الى أيامه الذوائب فى ظل رعاية المنصور ويصف ابن حيان مافعله اضطراب الأحوال بالأندلس بابن دراج بقوله « وكان ممن طرحت بتلك الفتنة الشنعاء واضطرته الى النجعة فاستقرى ملوكها أجمعين مابين الجزيرة الخضراء فسرقسطة من الثغر الأعلى يهز كلا بمديحه ويستعينهم على نكبته ، وليس منهم من يصغى اليه ، لا يحفظ ما اضيع من حقه وارخص من علقه ، وهو يخبطهم خبط القضاة بمقولة ، فيصمون عنه ، الى أن مر بعقوة منذر ابن يحيى أمير سرقسطة ، فألقى عصا سيره عند من بوه ورحب به واوسع قراه ، فلم يزل عنده وعند ابنه بعده ، مادحا لهما ، مثنيا عليهما ... الى أن مضى لسبيله » ولا يستبعد الدكتور مكى أن تكون العلاقات قد ساءت بين ابن دراج وبين يحيى بن منذر ، وانه اضطر الى الاستجارة بمجاهد العامرى صاحب دانية ويرجح انه مات بها فى سنة ٤٢١ هجرية .

وقد خلف لنا ابن دراج فى ديوانه مجموعة من القصائد مفرغة فى قوالب متينة السبك قوية

البناء ، تدل على اصالة فى الشعر ، وسيطرة على اللفظ ، واطلاع واسع على شذور اللغة ، وهو اطول نفسا من المتنبى ، وان كان المتنبى أعمق منه حكمة ، وقد كان يجيد الوصف وبخاصة وصف الرحلات التى تجشم متاعبها وعانى صعابها ، وسعة اطلاعه على الشعر العربى كانت تجعله فى بعض الأحيان يقترب فى اللفظ والمعنى من الشعراء الذين تقدموا عصره مثل قوله :

ولئن جنيت عليك ترحة راحل
فأنا الزعيم لها بفرحة آيب

فهو قريب من قول أبى تمام :

وليست فرحة الأوبات الا
لموقوف على ترح الوداع

وقوله فى القصيدة التى عارض بها قصيدة المتنبى فى مدح ابن العميد :

يا من تكبر بالتكرم قدره
حتى تكرم أن يرى متكبرا

فقد نظر فيه الى قول أبى تمام :

فتى كان عذب الروح لا عن غضاضة
ولكن كبرا أن يقال به كبر

وشعره فضلا عن بلاغته له قيمة كبيرة من الناحية التاريخية ، فهو يصور الكثير من الأحداث التى وقعت بالأندلس فى حالتى القوة والتماسك وحالة الضعف والانحلال وابتداء السقوط والانحدار .

وقد كان ادباء العروبة يتساءلون كثيرا عن ديوان القسطلى ويأسفون على عدم قدرتهم على العثور عليه ، ويخشون أن يكون قد ضاع فى خلال الأحداث المحزنة التى اصابت الأندلس والمغرب ، ولا شك فى أن قراء العربية مدينون بالشكر والتقدير لصاحب السمو العالم الجليل الشيخ على عبد الله آل ثانى الذى طبع الديوان على نفقته وللأستاذ الفاضل الدكتور مكى الذى قام بتحقيق المخطوط وبذل فى ذلك وسعه وكتب للديوان مقدمة وافية تعد من خير المراجع لدارسى أدب القسطلى .

على أدهم

فضل العرب

تأليف : المؤرخة الألمانية المعاصرة :
الدكتورة سيجريد هونكه

ترجمة وتعليق :
الدكتور فؤاد حسنين على

الناشر : دار النهضة العربية بالقاهرة

هذا كتاب يجىء تأليفه وترجمته فى أحسن الأوقات ملاءمة للقومية العربية وصراعها ضد محاولات طمس فضلها فى حمل مشاعل الحضارة والثقافة فى الأدوار التاريخية المختلفة وخاصة تاريخ العصور الوسطى قبيل عصر النهضة الأوروبية التى قبست من تلك المشاعل ومضت بها حتى انتجت الحضارة الحالية التى تنسب الى الغرب ، وان كان قد اشترك فى انمائها وازدهارها أمم أخرى من غير الغرب .

وقد حفل هذا الكتاب بالدلائل والشواهد التاريخية البليغة التى تدحض كل ما حاول أعداء العرب والاسلام أن يروجوا له ويبثوه فى أذهان الناس ، من أن العرب والمسلمين ليس لهم دور فعال فى الحضارة والثقافة غير دور (ساعى البريد) ، فلم يضيفوا شيئا لما نقلوه عن الأمم السابقة ذات الحضارة كاليونان والرومان والهند والفرس .

والمادة الغزيرة التى يفيض بها الكتاب فى كل مقال ، لا شك أنها تأتى فى هذه الآونة مددا عظيما

على أوربا

أو شمس الله على الغرب

للدعاية العربية ودعمها لمواجهة الدعاية الصهيونية والاستعمارية التى تنشط أجهزتهـا فى بثهـا واذاعتها لتبرهن لدى الجاهلين والسطحيين على أن الصهيونية انما تقتحم فلسطين وما حولها من أرجاء الوطن العربى لتملأ فراغا حضـاريا كبيرا تزعم أن أهله لم يملئوه قديمـا وحديثا بالعلم والمدنية المادية والمعنوية والديمقراطية والعدالة ، وتسوق هـذه المزاعم لتدفع عن نفسها تهمـة الاغتصـاب والاقتحام والعدوان الوحشى على فلسطين وأهلها الآمنين ، ولتبرر هـذه الجرائم بانها تفعلهـا فى سبيل تحضير العرب وتعليمهم ونقلهم الى المدنية التى لم يعرفوها من قبل .

وفى الحق أن هـذا الكتاب من أعظم الردود على تلك المزاعم والأوهام التى شاعت فى الأوساط الغربية ، وحتى لدى بعض العرب المحدثين الذين قطعت الجهود والدسائس الاستعمارية والثقافات المزيفـة صلتهم بحقـائق تاريخ أمتهم ودورها الطويل فى الحضارة والثقافة وخاصة فى العصور الوسطى ، حتى جعلت ذلك البعض العـــربى يستسلم لتلك المزاعم والمفتريات ويرددها ويتركها دعوى مسلمة يبنى عليها أحكامه على تاريخ أمته ، ويشـارك فى حمـلة الازراء والغمط لجهودها وتأثيرها البالغ فى حمل أمانات الحضـارة المادية والمعنوية نحو الف سنة وتوسيعها وتعميقهـــا وتسليمها الى الأيدى الفتية التى تلقفتها منهـا ابان عصر النهضة الأوروبية العالمية الحالية .

ومن الظواهر البارزة التى تستوقف النظـر فى هذا الكتاب ، قدرة المؤلفة على استيعاب دقائق الحضارة الاسلامية وتفصيلات تاريخها وتأثيرها فى حضارات الشعوب المختلفة وخاصة الشعوب الأوروبية ، وعمق تقصيها وتتبعها لسـير تلك الدقائق وتغلغلها فى الحياة الأوروبية منذ العصور الوسطى للآن ، مما يحمل القـارىء على تقدير ذكاء المؤلفة ورحابة ثقافتها التاريخية ودراساتها الاجتماعية والانسـانية وتجردها من التعصب والتحيز المقوت فى البحث عن الحق ، وحرصها على رد الفضل الى أهله ، وبراءة عقلها من تأثير الدعايات المضادة المغرضة ، وتمتعهـا بالروح العلمية والنظرة الانسانية الشاملة .

وقد استطاعت بفضل تلك الخلال الطيبـة التى تتحلى بها ان ترد كثيرا من مظاهر الحضارة الغربية الوسيـطة والمعاصرة الى مصـادرها وجذورها فى الشرق الأسلامى وتجلو الحقـائق التاريخية التى كانت قد اوشكت معالمها انتطمس حتى لدى كثير من ابنـاء الشرق والاسـلام والعروبة ، كما سبق القول ، مما عكس ذلك فى اعتقادنا نحن العرب المعاصرين ، اننا نعـد من الشعوب المتخلفة التى تفتح عيونها على الحضارة الحالية لأول مرة ، كأننا ليس لنا فى بعثها الفضل الأول ، وكأننا لم نقدم لهؤلاء الغربيين أصـولها واسسهـا وروافد نموها وقوانين حفظها واطرادها قبل أن يلحقنا داء الأقوام من الاختلاف والتفكك والضعف (تلك الأيام نداولها بين الناس) .

ومن المؤسف ان العرب المعاصرين يحتـاج اكثرهم ، وخاصة الشباب ، الى ان يقرءوا مثل هذا الكتاب ليستردوا ثقتهم بأمتهم واصـالة جهـودها وقوة فعاليتها فى سير الحضـارة الانسانية ، وليعرفوا تأثير آدابها ودينها وعلومها

وجهودها عامة فى حياة الأمم والشعوب الشرقية والغربية .

واذا كانت الشعوب التى لا عراقة لها تفتعل لنفسها أصالة وعراقة تضفى على تاريخها هالات وأمجادا لتغرس بهـا الثقـة والايمـان فى قلوب ناشئيها وشبابها ، فان الأمة العربية لا تحتـاج الى هذا الافتعال ، فقد أغنتها أمجـادها المعلومة والمجهولة عن أن تزعم لنفسـهـا مزاعم باطلة ، وانما الجدير بها أن تنفض عن تلك الأمجاد غبار الغمط والنسيان ، وان ترجع الى مصادر تاريخها ولا تسمع ما يقصه عليها أعداؤها وما اجتهـدوا ان يزرعوه فى اذهانها ويزيفوه ، مما أقام بينهـا وبين حقائق تاريخها فواصل وحواجز غيبتها عن نظارها دهرا طويلا ، وجعلتها تستسلم للأكاذيب والأوهام التى ارادوها ان تعيش بها لتفقـد قوة المقـاومة والدفع لمكايدهم ومكـرهم السىء ، فتستسلم لهم وتعجز عن مواصلة عملها فى البناء الحضارى العالمى الذى بداته وعاصرته فى أدوار التاريخ القديم والوسيط .

وان الباحث المنصف ليعجب : كيف يغفـل المؤرخون الغربيون اثر قيام العالم الاسلامى على أيدى العرب بما فيه من ثقافات وحضارات .. ! وكيف يطمس هذا الأثر بعد ان استمر يؤثر فى العـالم اربعة عشر قرنا .. ! فبأى منطق ملتو وبأى قدرة على البجاحة يمكن طمس هذا الأثر .. ؟! الم يتخيلوا : ماذا كان مصير العـالم لو لم يقم العرب دولتهم وعالمهم الضخم الكبير .. ؟!

واذا كانت قمة القمم فى الحضارة هى اعلاء القيم الكونية والانسانية وانماء العلوم والثقافات الزمنيـة وانصـاف الناس واحترام الحقوق الأساسية للجميع ، فالعـرب هم الذين احتلوا وحدهم هذه القمة العليا .

ان سبب ذلك الاغفال من المؤرخين الغربيين هو أولا : تأثير الحروب الصليبية وما زرعتـه فى قلوب الغـربيين مـن تعصب وعمى عـن رؤية فضائل العـرب والمسلمين . ومن حرص على طمس معالم التأثير الاسلامى فى التاريخ الحضارى ، وعن تلك النظرة الحاقدة المسمومة الى العـرب ، وعن غمط حقوقهم وفضـائلهم وعـن النزعـة الاستعمارية التى تستحل غصب حقوقهم واخذ موارد رزقهم وحياتهم واهدار قيمهم ومكانتهم ، واجتياح ديارهم ، وغزوهم الفكرى والخلقى .

والسبب الثانى لذلك الاغفـال هو الكيـد والدس الصهيونى الذى لم يجد أهله فى التاريخ صدرا أوسع ولا أرحم من صـدر العرب ، ومع ذلك لم يتورعوا عن الحقـد عليهم والكيد لهم واشعال نار عداوة الصليبيين والمستعمرين لهم ، سعيا وراء تحطيم الكيان العربى القائم بفلسطين والمحيط بها والشاغل « لأرض الميعـاد والارض الموعودة » . تمهيدا لاقتحامهم لها كما وقع ذلك فيما بعد سنة ١٩٤٨ .

وقد وضحت معـالم المعـركة الدائرة بين اليعربية واليهودية على مستقبل هـذه الأرض وانكشف الغطاء عن المطامع الصهيونية التى تحوم حول هذه الساحة العربية ، وعن الأسـلحة المختلفـة التى يستعملونها فى حربهم الظـاهرة والخفية ، بعد أن قامت اسرائيل فى قلب البـلاد العربية .

ومن أسلحتهم ، **تلك الحرب الثقافيـة التى اشتركوا فى شنها على تاريخ العرب** ، وحاولوا بها طمس معالمه وتحقير تأثيره فى سير الحضـارة الانسانية ، وتشويه فضائله أو نسبتها الى غير العرب والمسلمين ، وذلك تمهيدا للطعن فى سمعة القومية العربية المعاصرة وزعم تفاهـة وجودها وخفة وزنها فى الميزان الدولى .

ومن حسن التوفيـق أن المترجم للكتاب من المتخصصين فى التـاريخ والدراسـات العبرية والسامية بوجه عام ، مما أعانه فى مقدمة ترجمته للكتاب وفى تعليقاته ، على ابراز الاشتراك اليهودى فى الجناية على التاريخ العربى الحضارى بالتقليل من شأن الدور الذى أداه العـرب والاسلام للحضارة الانسانية ، مع أن العـرب كانوا قدوة لليهود فى حفظ لغتهم وصيانة أسفار العهد القديم ونطقها نطقا صحيحا واعجامها وشكلها ، كمـا كانوا قدوة لهم فى تنمية شـعرهم ونثرهم ، وترجموا كثيرا من كتب الأدب العربى والفلسفة

والطب والرياضيات والقصص الشعبية الى العبرية ، وقد بين المترجم ذلك فى مقدمته .

وللمترجم مؤلفات عدة تتصل بهذا المجال ، منها (من الأدب العبرى) و (التوراة : عرض وتحليل) و (التاريخ العربى القديم) ــ ترجمة واستكمال ــ و (التوطئة فى اللغة العربية) .

وبعد ، فهذا تقديم لابد منه لبيان صورة من تلقى القارىء العربى لهذا الكتاب ، ومن الخواطر التى تدور فى ذهنه عندما يتصفح أبوابه وفصوله الفياضة بالمعلومات الكثيرة عن تأثير الحضارة الاسلامية ودقائقها فى الحياةالأوروبية.

ولابد من التنويه قبل العرض المختصر لأبواب الكتاب بالأسلوب الأدبى الذى تتمتع به المؤلفة وبالترجمة المشرقة التى يتمتع بها المترجم ، وذلك برغم الجفاف فى طبيعة بعض الموضوعات التى عرضتها فصول الكتاب ، وبرغم بعض الهنات اللفظية فى التعريب والطبع .

وتتضح شاعرية المؤلفة فى اختيارها اسم الكتاب وأسماء أبوابه وفصوله مثل (شمس الله على الغرب) و (البهار اليومى) و (العدد) و (السماء فوقنا) و (الأيدى الشافية) و (سيوف العقل) وغير أولئك من العنوانات الفرعية لأبحاث الكتاب ، مما يكشف عن عمق تذوق المؤلفة لصور الحضارة الاسلامية .

أما روح الانصاف التى تسود الكتاب فيكفى لبيانها أن ننقل من مقدمة المؤلفة تلك الفقرات التالية :

« من خطل الراى أن ننظر الى أوربا على انها هى ، وهى فقط ، العالم الحديث ومن الحماقة أن نقول ان تاريخ أوربا هو تاريخ هذا العالم .. وذلك لأنه مما لا شك فيه ان سائر القارات التى يتكون منها عالمنا هذا ساهمت وتساهم فى تكييف الأحداث العالمية التى تخضع لها شعوب المعمورة ويكفى أن ننظر الى خريطة عالمنا هذا فى العصور الوسطى لنرى كيف يحاصر البحر المتوسط جنوب القارة الأوروبية ويخضعها للسلطان الثقافى لأثينا وروما . أما اليوم فقد شاء الله أن تزول هذه الغشاوة عن أعيننا وأن يتسع صدرنا للحقيقة فلا نغمط الشعوب الأخرى التى ساهمت فى ايقاظ الوعى الانسانى وبعث ثقافة انسانية رفيعة أثرت وتؤثر حتى يومنا هذا لا فى أوربا فقط بل فى مختلف أرجاء العالم المتحضر . وشاء الله أن يظهر من الأوربيين من يجرؤ وينادى بهذه الحقيقة فلا يغمط العرب حقهم فى انهم حملوا رسالة عالمية وادوا خدمة انسانية للثقافة البشرية قديما وحديثا . ان هذا النفر من الأوربيين المنصفين لا يأبه يتحدى أولئك المتعصبين الذين أعماهم تعصبهم الدينى فحاولوا جهد طاقاتهم طمس معالم هذه الحضارة العربية أو التقليل من شأنها » .

« ان أوربا تدين للعرب وللحضارة العربية **وأن الدين الذى فى عنق أوربا وسائر القارات الأخرى للعرب كبير جدا ، وكان يجب على أوربا أن تعترف بهذا الصنيع منذ زمن بعيد . لكن التعصب الدينى واختلاف العقائد أعمى عيوننا وترك عليها غشاوة** حتى اننا نقرأ ثمانية وتسعين كتابا من مائة فلا نجد فيها اشارة لفضل العرب وما أسدوه الينا من علم ومعرفة ، اللهم الا هذه الاشارة العابرة الى أن دور العرب لا يتعدى دور (ساعى البريد) الذى نقل اليهم التراث اليونانى. أما العربى فلم يأت بجديد ولم يحقق رسالة » .

« ان موقف أوربا من العرب منذ نزول الوحى المحمدى موقف عدائى بعيد كل البعد عن الانصاف والعدالة ، والتاريخ وقتذاك كان يملى ويصنع ، والمملى لم يكن الضمير بل التعصب الأعمى . ان مثل هذا الوضع كان مفهوما فى عصر كان فيه الشعور السائد هو غمط حق كل فرد يخالف الأوربيين عقائديا ، **ومما يؤسف له حقا أن هذه النظرة القديمة التى كان مبعثها الظن فى ان الاعتراف للعربى بالفضل خطر يهدد العقيدة المسيحية ، مازالت قائمة حتىاليوم ، والتعصب الدينى مازال جادا فى اقامة الحواجز بين الأوربيين والشعوب الأخرى ، اذ ينظر الغربى اليهم كما لو أنهم مجرمون وثنيون وسحرة .**

ومن آثار هذه النظرة أيضا هذا النزاع الذى نشب ، وفىعصرنا ، هذا حولنشأة الغزلالغنائى .

«فالمتعصبون من الأوربيين يشق عليهم الاعتراف بالفضل لصاحبه وأن يقولوا ان هذا الفن عربى الأصل . اليس من العجيب حقا أن تظهر هذه النعرة فى القرن العشرين ؟ » .

« ان هذه النظرة الأوروبية دليل على ضيق أفق الفربيين ، وخشيتهم قول الحق والاعتراف للعرب بفضلهم وبخاصة انهم قد غيروا وجه العالم الذى نعيش فيه » .

« ان هذا الكتاب يهدف أيضا الى تقديم شكر كان يجب أن يقدم الى العرب منذ عصور قديمة فالألمان يدينون للعرب بالشىء الكثير ، وليست اللغة الألمانية بمستثناة من هذا ، مع الاشارة الى أننا لا ننكر آثار الشعوب الأخرى كاليونان والرمان وكالصينيين والهنود . »

وأما فصول الكتاب فقد استعرضت فيها المؤلفة وجوه تأثير الحضارة العربية فى المجالات المختلفة للحياة الأوروبية متقصية ملامحها التى ما تزال باقية للآن تقصيا دقيقا ، وكاشفة عن أوليات استخدام أدوات الحضارة العربية وكلماتها ومواضعاتها فى الحياة البيتية الأوروبية وفى فنون عيشها وعلوم دراساتها وفى تجارتها وملاحتها وآدابها وحياتها الفنية .

ففى فصل (البهار اليومى) استعرضت أدوات الحضارة المادية العربية ذات اللمسات الفنية والمفردات العربية الكثيرة المنتشرة فى كل ناحية من نواحى اللغات الأوربية ، و « أسماء كثير من عناصر الحضارة والمدنية التى يستعملها الأوروبيون فى حياتهم اليومية ، وقد جاءتهم عن العرب . وقد جملت هذه الأشياء الدخيلة الحياة الأوروبية اليومية ، كما أضفت عليها جميع مظاهر البهجة والأبهة والحياة الرفيعة الراقية التى يحياها العالم المتمدن اليوم ، **وإذا كان العالم الحديث يتمتع بقسط وافر من النظافة والقواعد الصحية فالفضل فى ذلك الى العرب ، وما أعاروه لأوروبا»** .

وفى هذا الفصل أيضا تتحدث المؤلفة حديثا قيما عن أثر العلاقات التجارية العربية فى أوروبا مبينة نتائج تذبذب تلك العلاقات فى التحولات الاجتماعية التى طرات على أوروبا فتقول فى صفحة ٢٠ « والآن يبدو لنا ان خيرات العرب كانت أساس الاثراء والرخاء لا فى الشرق فقط ، بل فى الفرب أيضا ، كما أن هذه التجارة العربية هى القوة الاقتصادية ذات الأثر الفعال فى أوروبا وان رفع المستوى الاجتماعى فى الفرب انما مرجعه القفف العربية الملأى بالفلفل » وتقول فى ص ٢٣ « ثم نجد التجارة العربية تتخطى جبال الألب ، وكما كان الحال قديما فى ايطاليا كذلك هنا عبر الألب حيث نجد خامات الأقمشة العربية وعليها الطرز العربية وقد صنعت صناعة حديثة، فمثلا القطن الذى ادخل العرب زراعته الى اسبانيا وصقلية هو الذى يصنع منه هذا القماش الناعم الرقيق وتصدره سوريا وخراسان الى مختلف الأسواق العالمية » .

وتقول فى ص ٢٥ « وكان الشرق يزخر بالآيات الباهرة ثقافيا وصناعيا وكان كل مافيه يوحى لدعاة الاصلاح بادخال الشىء الكثير الى أوروبا رغبة فى الأخذ بيدها وتقدمها » .

وفى ص ٣٥ تقول « وفضل العرب على المرأة وزينتها وأناقتها يتجلى لنا أيضا فى غير ملابسها، يتجلى فى المساحيق والعطور .. » « وهناك عادة هامة بالنسبة للعربى احتفظ بها الأوربى ألا وهى عادة الاستحمام وخلع الملابس » « ولما زار الطرطوشى بلاد الفرنك لاحظ شيئا آخر فكان وهو المسلم الذى يتوضأ قبل كل فرض من فروض الصلاة الخمسة يستنكر حال القذارة التى يحياها الشعب ، لذلك صور هذه الحالة التى شاهدها بقوله : انه لم يشاهد فى حياته اقذر منهم ، لا يفتسلون الا مرة أو مرتين كل عام وبالماء البارد ، أما ملابسهم فلا يفسلونها بعد أن لبسوها لكيلا تتمزق » وتقول فى ص ٣٦ « ثم اندلعت نيران الحروب الصليبية واقبل الصليبيون على الشرق فشاهدوا الحمامات فى كل مكان .. وكان فى بغداد آلاف الحمامات الساخنة والحماميون والمدلكون والحلاقون للرجال والنساء للعناية بالجسد لا أسبوعيا فقط بل يوميا » .

وتقول فى نفس الصفحة « **وهكذا اخذت قلاع الدفاع التى شيدتها المسيحية فى وجه العرب**

والاسلام والحضارة العربية تستسلم الواحدة بعد الأخرى ، وذلك بفضل القنطرة التجارية التى أقامتها الجمهوريات الايطالية مع العرب وبفضل التجار والمسافرين والصليبيين » واندفع تيار الحضارة العربية يكتسح ما أمامه من عوائق ، فافاقت أوروبا من نعاسها وأدركت أثر الجهالة التى تغط فيها ونهضت بفضل العرب والحضارة العربية)) .

وقد بينت المؤلفة فى هذا الفصل ايضا نقل الأوروبيين لكثير من أدوات السلم والحرب عن العرب ، كالورق والبوصلة المغناطيسية والمفرقعات والصواريخ المتفجرة وأدوات الملاحة ودور الصناعة البحرية ، والحمام الزاجل وكثير من النباتات والخضر والفواكه والحدائق والزهور .

هذه مقتطفات مما أوردته المؤلفة فى فصل (البهار اليومى) الذى تناول الناحية المادية للحضارة العربية ولمساتها الفنية فى حياة الأوروبيين اليومية ، وقد رأيت الاكثار من تلك المقتطفات ، لأبين للمفتونين بحضارة الغرب المادية الحالية ، أن العرب هم أساتذة الأوروبيين فى العناية بالجانب المادى أيضا من الحياة ، كما كانوا معنيين بالجانب الروحى .

وقد افاضت أبواب الكتاب وفصوله الأخرى فى بيان آثار العرب فى الرياضيات والفلك والطب والصيدلة والملاحة والفلسفة والمنطق والآداب ، والفروسية والألعاب والموسيقى والغناء والرسم ، كما افاضت فى التسامح العربى والنظرة الجديدة التى نظرها العرب للحياة والانسان وما كان لها من آثار فى التقريب بين الشرق والغرب .

ولا نرى داعيا الى سرد مقتطفات من تلك الأبواب والفصول ، كما اقتطفنا من الباب الأول ، لأن كل ما فى تلك الفصول جدير بالاقتطاف يحار المرء فيما يؤثره منه بالاختيار ، لنفاسته وحسن دلالته على أن الروح العربية روح انسانية عالمية متفتحة للخير ، لا تعرف التعصب ولا ضيق الأفق ولا اكراه المخالفين ولا غمط حقوق الناس ، ولا البخل بفضل الله ولا زعم احتكاره ، مما جعلها بحق فى خيال مؤلفة هذا الكتاب « شمس الله » التى تشرق بنعمته تعالى وبره على الناس جميعها فى الشرق والغرب وتمدهم بالنور والخصب والدفء والهدى على طريق الحياة .

« وبعد » **فما أجدر أجهزة الدعاية العربية أن تنتفع بنشر هذا الكتاب أو منتخبات منه وأن تنتفع كذلك بما فيه من حقائق ومعلومات وتضعها بين أيدى الناس جميعا وضعا فنيا مثيرا لانتباههم وأن تصنفها وتوزعها على كل فروع المعرفة لتبين أوليتها وريادتها على طريق الحضارة الانسانية ،** فتتيح بذلك للدارسين والمؤلفين فى تلك الفروع فرص الاطلاع على هذه الأوليات الحضارية العربية ليضعوها فى مواضعها من تواريخ تلك المعارف والعلوم .

كما يجدر بتلك الأجهزة ، وبالدوائر الجامعية العربية المعنية بهذه الدراسات ان تقص الآثار الكثيرة التى ذكرتها المؤلفة وتتبع خيوط البحث التى اهتدت الى اطرافها ، لموالاة استكشاف ما يكون مكنونا من تأثير الحضارة العربية فى الحياة الأوروبية والنهضة العالمية ، وهو لا شك كثير .

وشكرا للدكتور المترجم على مابذله من جهد فى الترجمة والتعليقات وشرح المفردات وردها الى أصولها فى اللغات الشرقية أو الغربية .

ونرجو أن تخلو الطبعة المقبلة من مثل هذه الأخطاء التالية :

يجرا : وصحتها : يجرؤ

(يأبه من تحدى) وصحتها : يأبه بتحدى أو لتحدى

(اتسمحى لى) : وصحتها : اتسمحين

(اغماط حق) : وصحتها : غمط حق

(وبخاصة فقد غيروا) : وصحتها : وبخاصة أنهم قد غيروا

(يذخر) : وصحتها يزخر .

ففاقت أوروبا من نعاسها : وصحتها : فأفاقت ... »

عبدالمنعم خلاف

عبد الله ابن الزبير

لقد اجتمع الفضل والشرف والسؤدد لعبدالله بن الزبير من جهات كثيرة .. فأبوه هو الزبير بن العوام الذى كان سيفه أول سيف سل فى سبيل الله ، وله فى المغازى والفتوح وقفات بطولية رائعة ، ولا تنسى مصر – بخاصة – موقفه فى فتح حصن بابليون حينما لاذ الروم به ، فتسور المسلمون الحصن عليهم بفضل ذلك القائد الشجاع .. والزبير الأب – أبو صاحبنا عبد الله – هو ابن صفية بنت عبد المطلب عمة النبى عليه السلام ، وكانت من أسبق النساء اسلاما ، بل من أسبق الناس على الاطلاق . كما كانت من المهاجرات الى المدينة بعد أن أسرف المشركون من قريش فى أذى الرسول ، فهاجر مع صاحبه الصديق ليلة غار ثور ، فلما بلغ بهما المقام المدينة بدأت حركة الهجرة اليها تتتابع ، وآخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار . وأم صاحبنا عبد الله بن الزبير هى السيدة أسماء بنت أبى بكر الصديق ، وأخت السيدة عائشة أم المؤمنين وزوج محمد عليه السلام . ومصعب ابن الزبير – أخو عبد الله بن الزبير – هو قائد عربى آخر من طراز رفيع ، وقد نصبه أخوه عبد الله قائدا وواليا على البصرة لمحاربة « المختار ابن أبى عبيد الثقفى » الذى دعا لنفسه بالخلافة الاسلامية – بعد أن طمع فيها كل طامع – وقد كان فى مصعب بن الزبير مضاء وكفاية وحزم شديد . فلما ولى البصرة ليبدأ حركة المقاومة ضد « المختار » ، توجه الى مسجدها الجامع ،

تأليف
الدكتور علي حسني الخربوطلي

فصعد المنبر ، وخطب خطبة وجيزة حكيمة ذات مغزى كبير ، قال فيها : (يا أهل البصرة ! بلغني انكم تلقبون امراءكم ! وقد لقبت نفسي بالجزار!!) وليس بعد هذا تهديد للمخالفين ، وتخويف للمناهضين ، فقد أعلن منذ هذه اللحظة ، وعلى اعتاب المنبر البصرى وأعواده ، سياسة تنطوى على الشدة والحزم والتهديد بالقتل لمن يناوىء حركة الزبيريين أتباع اخيه عبد الله بن الزبير ..

ونمضى فى عرض نماذج من أسرة الزبير ابن العوام ، فيصادفنا حمزة بن عبد الله بن الزبير ، الذى ولاه أبوه بعد عزله أخاه مصعبا سنة ٦٧ هـ . واذا صح ما رواه بعض المؤرخين كابن الأثير من ان حمزة هذا كان جوادا مخلطا ، يجود أحيانا حتى لا يدع شيئا يملكه ، ويمنع أحيانا ما لا يمنع مثله .. واذا صح ايضا ما رواه ابن الأثير من ان حمزة هذا ـ حين تخبطه الضعف فى سياسته بالبصرة والعراق قال له أبوه عبدالله : ابعده الله ! اردت أن اباهى به بنى مروان فنكس : اذا صح هذا ، وصح معه كذلك ان حمزة هذا خرج الى الحجاج ـ فى أثناء حصاره للكعبة طالبا راس عبد الله بن الزبير ـ يطلب منه الأمان ، تخلفا عن ابيه الشجاع عبدالله بن الزبير ـ فان « الزبير » ـ احد أولاد صاحبنا عبد الله ابن الزبير ـ ابى أن يصنع كما صنع اخوه حمزة ، ورفض أن يخرج فى طلب الأمان لنفسه من الحجاج العنيد ، وصمم على ان يقف على حياض الموت ، مشاركا اباه عبد الله فيما ينتظره من مصير ..

وهذا الكتاب الذى نعرضه لك ايها القارىء الكريم هو سيرة تاريخية لعبد الله بن الزبير من اول حياته الى نهايتها فى مصرعه الأليم ، حيث لقى الموت على حال تخاذل فيها عنه أنصاره ، وانفض اعوانه ، واشتدت حملة جنود الشام عليه ـ وهم جنود عبد الملك بن مروان وقائده الحجاج ـ فقابل حملتهم بحملة قوية ، ولكن ما لبث أن أصابه حجر شج جبينه ، فاتجه الى الله ، وهو محطوم القلب والنفس والأعصاب ، يقول فى شعر رواه المسعودى المؤرخ صاحب « مروج الذهب » :

يا رب ! ان جنود الشام قد كثروا
وهتكوا من حجاب البيت استارا

يا رب ! انى ضعيف الركن مضطهد
فابعث الى جنودا منك انصارا

ولكن شاءت ارادة الله أن لا تجاب لابن الزبير دعوة ، وأن تسقط حركته فى المطالبة بالخلافة سقوطا لا قيام لها بعده ، وان يسقط فى الميدان صريعا بعد أن تكاثر عليه جند الشام من كل جانب ، وفر أنصاره من حوله يلتمسون الخلاص لأنفسهم من مأزق حرج . فمات صريعا فى ١٤ من جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ .

ولقد كان لعبد الله بن الزبير ـ قبيل مصرعه بزمن يسير ـ لقاء مثير مع أمه « أسماء بنت أبى بكر » وهو لقاء اتخذت منه كتب التاريخ والأدب موضعا لمشهد بطولى بين الولد الذى أظهر شيئا من الخوف ـ فى بعض المصادر ـ وكثيرا من الراى والنضج السياسى فى مصادر أخرى ، وبين الأم العربية التى ضربت مثلا رائعا فى الشجاعة والتجلد والشهامة ، فى ساعة يخور فيها الشجاع ، ويوهى فيها الجلد !! فشجعته على المصابرة ، ومداومة القتل ، وزينت له القتل والشهادة فى سبيل الله والمبدأ والفكرة التى يؤمن بها المرء عن اقتناع ، ودعت له ، لانه اذا قتل قتل على حق ..

وما نجد مقاما احمد ، ولا معرضا أجمل من عرض هذا اللقاء بين الأم وولدها ، كما جاء فى أصلين كبيرين من أصول التاريخ العربى الاسلامى ، وهما : الطبرى ، وابن الأثير . فان مثل هذه المواقف البطولية النادرة الأمثال جديرة أن تبرز وتعلن فى كل مجال ..

الناشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة
٢٨٨ ص ١٤×٢٠ سم الثمن ٥ قروش

لما شعر عبد الله بن الزبير بقرب منيته ، دخل على امه اسماء بنت ابى بكر الصديق ، وقد بلغت من العمر مائة عام ، ولم يسقط لها سن ، ولا ابيض من راسها شعرة واحدة (وكان دخول عبد الله بن الزبير على امه فى الساعة التى أحس فيها ان انصاره خذلوه ، وان اتباعه أخذوا ينفضون عنه ، ويتخاذلون عن نصرته حين استمر القتل بهم من جيوش « الحجاج بن يوسف الثقفى » وجند الشام ، فقال لها : يا اماه ! لقد خذلنى الناس حتى ولدى واهلى . ولم يبق معى الا اليسير ممن ليس عنده من الدفع اكثر من صبر ساعة . والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا . فما رأيك ؟؟

فقالت أسماء : انت والله يا بنى أعلم بنفسك ! **ان كنت تعلم أنك على حق ، واليه تدعو ، فامض له ! فقد قتل عليه أصحابك ! ولا تمكن من رقبتك يلعب بها غلمان بنى أمية . وان كنت انما أردت الدنيا ، فبئس العبد أنت ! أهلكت نفسك ، وأهلكت من قتل معك . وان قلت : كنت على حق ، فلما وهن أصحابى ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ، ولا أهل الدين . وكم خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن !**

ودنا عبد الله بن الزبير من أمه أسماء ، فقبل راسها ، وقال هذا والله رأيى ؛ والذى قمت به داعيا الى يومى هذا ، ما ركنت الى الدنيا ، ولا احببت الحياة فيها . وما دعانى الى الخروج الا الغضب لله أن تستحل حرمه . ولكنى احببت أن أعلم رأيك ، فزدتنى بصيرة مع بصيرتى ... فانظرى يا اماه ! فانى مقتول من يومى هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمى الأمر لله ! فان ابنك لم يتعمد اتيان منكر ، ولا عملا بفاحشة .. ولم يجر فى حكم الله ، ولم يغدر فى أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغنى ظلم من عمالى فرضيت به بل انكرته . ولم يكن شئ احسن عندى من رضا ربى . اللهم انى لا اقول هذا تزكية منى لنفسى ! أنت أعلم بى ، ولكن اقوله تعزية لأمى ، لتسلو عنى !!

فقالت أسماء لابنها عبد الله : انى لأرجو من الله ان يكون عزائى فيك حسنا ان تقدمتنى ... وان تقدمتك ففى نفسى أخرج حتى أنظر الى ما يصير امرك .. فقال عبد الله : جزاك الله خيرا يا أماه ! فلا تدعى الدعاء لى قبل وبعد ! فقالت أسماء : لا أدعه أبدا ! فمن قتل على باطل ، فقد قتلت على حق .. ثم ختمت قائلة : اللهم ارحم طول ذلك القيام الطويل ، وذلك النحيب والظمأ فى هواجر المدينة ومكة ! وارحم بره بأبيه وبى ! اللهم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأثبنى فى عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين ..

ولقد عرض لنا المؤلف ــ الدكتور على حسنى الخربوطلى ــ حياة عبد الله بن الزبير عرضا تتجلى فيه روائع سيرة هذا البطل على اشدها . كما عرض لنا فترة دقيقة من فترات التاريخ العربى الاسلامى ، اشتد فيها الصراع بين الأحزاب ، وتقاتل فيها نفر من الصحابة والتابعين على الحكم ، ودخل الى الميدان جماعة من أصحاب المطامع والطموح وذوى الأهداف التى يبغون بها وجه مصلحتهم الذاتية ، ونحى عن الخلافة أحق الناس بها ، وأجدرهم بتوليها ، وشهدت أرض العرب والاسلام مصارع كثير من الشهداء ؛ كعلى ابن أبى طالب ، والحسين بن على ، ومصعب ابن الزبير ، وغيرهم من مئات المجاهدين والداخلين فى المعارك والخصومات عن عقيدة واقناع ، والمقتحمين الميدان تحقيقا لرخيص الأطماع ...

واذا كنا ندع هنا مصرع الحسين جانبا لبعده عن ميدان حركة عبد الله بن الزبير فى المطالبة بالخلافة ، فلا أقل من أن تلم المامة سريعة بمصرع مصعب بن الزبير ــ اخى عبد الله ــ حيث نقل المؤلف عن ابن الأثير تصويره لخاتمة هذه الحياة المكافحة المصابرة قائلا : (وخذل الناس مصعبا ، وخذلوه حتى بقى فى سبعة انفس ، واثخن مصعب بالرمى ، وكثرت الجراحات فيه ، فعاد الى عبيد الله بن ظبيان ، فضربه مصعب ، فلم يصنع شيئا لضعفه بكثرة الجراحات ، وضربه ابن ظبيان فقتله .

على ان مصرع عبد الله بن الزبير ــ وهو صاحب السيرة فى هذا الكتاب ــ كان أشد وآلم ،

ويقتصر المؤلف على مصادر مختلفة - كعادته دائما في النقل - فرواه عن المسعودي وابن عساكر وابن الأثير.

وبمناسبة الحديث عن المصادر نذكر للدكتور الخربوطلي أنه لا يدع مصـدرا أن يفيد منه أو ينقل عنه، حتى لقد تختلط بذلك العبارات المنقـولة، فلا تدري أهي لمؤلفنا الفاضل أم لمن نقل عنهم؟! **والشرط في النقول والأخذ والاستشهاد والنصوص المروية أن توضع بين حواصر أو أقواس حتى تميزها من كلام المؤلف أو كلام غيره، وحتى يمكن بذلك أن يرد كل قول لقائله، وينسب كل فضل لصاحبه.** وقد التمست العذر للدكتور على الخربوطلي منذ أن سعدت بقراءة بضعة عشر كتابا من مؤلفـاته، ومترجماته. فهو كثير القراءة، كثير النقـل والاستشهاد، كثير الاستعمال لنصوص غيره.. ولعل ذلك مما لا يحدد عنده مواطن النقول. وقد كان له عن ذلك كله مندوحة واسعة، فإن علامات الترقيم والاقتباس والتنصيص لم تضع من اللغة العربية..

ولا أدري لم قد وسع المؤلف مجال المراجع بين يديه ثم لم يصطف البهاء من كتب القديم والحديث ما تصطبغ به سيرة عبد الله بن الزبير على أجلى معارضها. فقد ترك - مثلا - من المصادر «الاستيعاب» لابن عبد البر، كما ترك - مثلا - «تهذيب الأسماء واللغات» لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي - وهو على ايجاز التراجم فيه يأتي باختيار قد لا ترد في غيره. كما ترك - مثلا - كتاب «سير أعلام النبلاء» للمؤرخ شمس الدين الذهبي، وفيه فوائد كثيرة قد تزيد في تجلية الصورة واستكمال ملامحها عند عبد الله بن الزبير.

ومن هذه الملامح ما روى مثلا في الجـزء الثالث من «سير أعلام النبلاء» من أن القوة التي كانت في عبد الله بن الزبير قد جاءته من حادثة معينة.. وهو خبر عجيب كان يصح أن يطلع عليه الدكتور الخربوطلي، وأن لا يدعه يفلت منه ومن التعليق عليه.. فقد نقل المؤرخ الذهبي عن «التبوذكي» قوله: حدثنا هنيـد بن القاسم، سمعت عامر بن عبد الله بن الزبير، سمعت أبي يقول: انه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يحتجم، فلما فرغ، قال: يا عبد الله! اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحدا! فلما برز عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عمد الى الدم فشربه! فلما رجع قال: ما صنعت بالدم؟ قال: عمدت الى أخفى موضع علمت فجعلته فيه! قال له النبي: لعلك شربته! قال: نعم! قال: ولم شربت الدم؟ ويل للناس منك! وويل لك من النـاس!! قال موسى التبوذكي: فحدثت بهذا الخبر أبا عاصم فقال: كانوا يرون أن القوة التي في عبد الله بن الزبير هي من هذا الدم..

أليست معي أن مثل هذا الخبر المروي باسناد كثيرة كان جديرا أن يهتدي اليه الدكتور الخربوطلي، وأن يعلق عليه وهو يحدثنا في الصفحات الأولى من كتابه الممتع المفيد عن نشأة عبد الله بن الزبير؟ لقد ذكر الدكتـور على الخربوطلي بعض الشيء عن هذه النشأة، فقد كان ابن الزبير يتردد على بيت النبي عليه السلام كثيرا، ويطيل المكوث فيه عند خالته السيدة عائشة زوج النبي رضي الله عنها، حتى لقد كان عبد الله ربيبا لخالته عائشة. وذكر المؤلف هنا أن ابن الزبير كان أول طفل ولد في «المدينة» في الاسلام، وقد كان مولده بالمدينة فرحا عظيما للمسلمين، ولطمة كبيرة لليهود، فقد كانوا زعموا أنهم سحروا المسلمين فلم يولد لهم ولد بعد مقدمهم الى المدينة. فجاء مولد عبد الله بن الزبير مكذبا لهم ولدعواهم الباطلة المضحكة. وكان مولود النبلاء بصفة خاصة متعلقا بمولد عبد الله بن الزبير، الى حد أنه قال لأمه أسماء «أرضعيه ولو بماء عينيك».

على أن اغفال بعض المصادر عنـد الدكتور الخربوطلي لا يمنعنا أن نشيد بفضله في ذكر مصدر الفرد وحده بذكر حادثة لابن الزبير في أثناء محاصرة «الحصين بن نمير» للكعبة ولعبد الله ابن الزبير، في أثناء خلافة يزيد بن معاوية.

فقد ذكرت مصادر مختلفة خبر تتابع النجدات على ابن الزبير لمعاونته على فك الحصار عنه وعن الكعبة . فقد جاءه جند من مدينة الرسول عليه السلام — وهم الذين نجوا من قبضة مسلم ابن عقبة — لينجدوه — ثم جاءته نجدة من ارض اليمامة بزعامة ابن عامر الحنفى الذى ثار على الحكم الأموى فى شبه جزيرة العرب ، ثم قدم الأزارقة من الخوارج من ارض العراق يقدمون له مؤازرتهم ، ثم جاءه المختار بن أبى عبيد الثقفى يعرض عليه نجدته ضد الغزو الأموى نظير شروط اشترطها .. وقد كان المختار داهية بعيد الأطماع .. كل هذه النجدات تكرر ورود خبرها فى مصادر متنوعة من التاريخ الاسلامى ، الا النجدة التى قيل ان « النجاشى » ملك الحبشة قد أرسلها من افريقية عبر البحر الأحمر الى عبد الله بن الزبير لمساعدته فى حركة الدفاع عن الكعبة .. فقد انفرد المؤرخ « البلاذرى » بذكر هذه النجدة الحبشية فى الجزء الرابع من كتابه « انساب الأشراف » .

وخبر هذه النجدة مهم جدا ، حتى لقد أشار اليه الدكتور على الخربوطلى مرة قبل هذا فى كتابه « الدولة العربية الاسلامية » الذى نشرته دار احياء الكتب العربية — عيسى الحلبى — سنة ١٩٦٠ — ولكنا كنا نتنظر هنا فى كتاب « عبد الله بن الزبير » ، كما كنا انتظرنا فى كتاب « الدولة العربية الاسلامية » أن يكشف عن صحة هذا الخبر ، وأن يحلل لنا أسبابه وبواعثه ؟ وأن يتتبع فى المظان الممكنة — ان صح هذا الخبر — ما اذا كانت هذه النجدة ابتداء من النجاشى ملك الأحباش ، أم بناء على دعوة واستنجاد من عبد الله ابن الزبير ؟ واذا صح الافتراض الثانى ، أفما يكون غريبا أن يلجأ ابن الزبير الى ارض خارج الجزيرة العربية ، والى ملك غير مسلم ليستنصر به على أقوامه العرب المسلمين ؟؟

دعك من هذا ! واود ان أؤكد لك يا قارئى الكريم انك لا تكاد تقلب صفحة من صفحات هذا الكتاب الا وقعت عيناك على فائدة ، أو عبرة من عبر التاريخ ، أو موقف من المواقف التى يحمد فيها الرجال ، أو ناحية جميلة من نواحى المترجم له ، أو من نواحى غيره ، فلا يكتفى المؤلف بذكر هذا الموقف ، بل يشير اليه ، ويشيد به ، كما صنع مثلا فى الفقرة الخاصة باشتراك عبد الله ابن الزبير فى غزو القسطنطينية ، على الرغم من رأيه فى الخليفة معاوية بن أبى سفيان الخليفة الأموى ، الذى قامت الغزوة فى عهد خلافته .
فان عبد الله بن الزبير على الرغم من عدائه لمعاوية ، وعلى الرغم من معارضته للدولة الأموية وللأسباب غير السليمة التى قامت عليها ، يكون أول المشتركين فى الجيش العربى الاسلامى الذى وجهه معاوية لغزو هذه العاصمة .
ولا بأس أن ننقل عنا كلام الدكتور الخربوطلى فى هذا حيث يقول : (مما يزيد اعجابنا بعبد الله ابن الزبير ، انه ما من حرب تهدف الى نشر الاسلام الا اشترك فيها ، وقد رأيناه يشترك فى موقعة اليرموك الى جانب أبيه الزبير بن العوام ، وكان عبد الله حينئذ فى الرابعة عشرة من عمره ، وذلك فى عهد أبى بكر . كما صحب عبد الله أباه الزبير فى فتح مصر فى خلافة عمر بن الخطاب . ثم رأينا ابن الزبير بطل المسلمين فى فتح افريقية فى عهد عثمان بن عفان .. **ورغم ما كان من عداء ابن الزبير لمعاوية ورغم معارضته للدولة الأموية ، فانه يتناسى دائما هذه الخصومة السياسية ليلبى دعوة الواجب ، ويستجيب لنداء الجهاد فى سبيل الاسلام ، ولذا نراه فى سنة ٥٠ هـ يشترك مع الجيش الاسلامى الذى وجهه معاوية لغزو القسطنطينية ، ورضى أن يعمل جنديا تحت قيادة يزيد بن معاوية) .**

وفى صفحة أخرى من الكتاب يكشف لنا المؤلف عن شجاعة ابن الزبير وصراحته فى ابداء الرأى الذى يراه ويؤمن به ، مهما كان الواقف أمامه ، المعارض له . فحين اراد معاوية بن أبى سفيان أن يأخذ البيعة لابنه يزيد بولاية العهد — وهو حدث خطير لم يسبق اليه فى الاسلام — رأينا عبد الله بن الزبير يعلن معارضته الشديدة لهذه البيعة — وقد ذهب معاوية بنفسه الى ارض الحجاز — مركز ابن الزبير واتباعه — ودخل المدينة متظاهرا بانه يؤدى فريضة الحج ، ودعا

معاوية الى لقائه زعماء الصحابة من أمثال عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن عمر — ابن الخطاب ، وعبد الله بن الزبير . وتعمد معاوية أن يغفل دعوة الحسن بن على والحسين رضى الله عنهما . وتعرض معاوية لموضوع المبايعة بولاية العهد لابنه يزيد . وهنا هب الصحابة فى وجهه يستنكرون رأيه ، وينكرون عليه ما هو مقدم عليه . وتكلم عبد الله بن الزبير بلسان أبناء الصحابة كلاما جريئا صحيحا قال فيه : (أما بعد ! فان هذه الخلافة لقريش خاصة ، تتناولها بمآثرها السنية ، وافعالها المرضية ، مع شرف الآباء ، وكرم الأبناء . فاتق الله يا معاوية ! وانصف من نفسك ! فان هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ، وهذا عبد الله بن جعفر ذو الجناحين ، ابن عم رسول الله ، وانا عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وعلى خلف الحسن والحسين .. وانت تعلم من هما ؟ وما هما ؟ فاتق الله يا معاوية ! وانت الحكم بيننا وبين نفسك !!) .

ولقد كرر معاوية المحاولة بعد وفاة الحسن ابن على كرم الله وجهه ، فكتب الى مروان بن الحكم — والى بنى أمية على المدينة المنورة — يطلب منه اخذ البيعة من أهلها ليزيد .. وهنا ثار الصحابة والقرشيون ثورة أخرى فى وجه رسول معاوية . لان المسلمين لا يعرفون هذا النوع من الحكم الوراثى ، حتى لقد كان تعبير عبد الرحمن بن أبى بكر — نيابة عن اهل المدينة — دقيقا صريحا فى رده قائلا : (تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل قام هرقل ؟؟) . وحين يجد مروان انه عاجز عن اقناع أهل المدينة بالبيعة ، يبعث الى معاوية يخبره بذلك ، فيعزله معاوية ، ويجعل سعيد بن العاص واليا بدله .. ولا يسكت المؤلف على هذا الكلام الذى لا يشفى غلة سائل عن السر فى تهاون مروان ، فبادر الى القول : « وفى الحق أن مروان ابن الحكم قد تهاون فى حمل هؤلاء المعارضين على البيعة ليزيد ، فقد كان هو نفسه طامعا فى الخلافة كما سنبين ذلك فيما بعد » .

أرأيت كيف تحمل الأغراض وأهواء النفوس الدفينة الناس على سلوك بعض التصرفات فى حياتهم ؟ ثم أرأيت كيف يتولى مؤلفنا الحاذق الكشف عن هذه الأهواء وتجليها ؟؟

اللهم ان حركة عبد الله بن الزبير كانت فتنة بين المسلمين الأولين ، اضيفت الى ما أصابهم من فتن فى عهد عثمان وعلى بن أبى طالب . **وفى أمثال هذه الفتن ، تضيع القيم ، وقد تنفصم العهود بين من ليسوا مظنة لانفصامها بينهم .** فقد كان عبد الله بن الزبير فى جانب ، وأخوه عمرو بن الزبير فى جانب آخر .. وادرك الأمويون هذا الشقاق بين الأخوين فاستغلوه لمصلحتهم .. وقد حدث أن عمرو بن سعيد ابن العاص — الوالى الأموى الجديد لمدينة الرسول — رأى أن يتبع سياسة الشدة مع اهل المدينة ، فاستعمل على الشرطة فيها : عمرو ابن الزبير ، لما كان يعلمه من عدائه وكراهيته لأخيه عبد الله ..

ولقد اقتضى تطور الحوادث أن تجىء الخلافة الى عبد الله بن الزبير يعرضها عليه قائد جيش الأمويين فى مؤتمر الأبطح بمكة فيرفضها ... وقد لام بعض المؤرخين صاحبنا ابن الزبير على هذا الرفض الذى فوت عليه — فى زعمهم — فرصة الخلافة .. ولكن الدكتور على حسنى الخربوطلى لا يمشى فى ركاب هؤلاء المؤرخين اللائمين .. فهو يؤيد ابن الزبير فى رفضه ، لأن أهل الشام لا يدينون بالولاء الا للأمويين ، ولأن ابن الزبير ليس له فى الشام عصبية تؤيده ، ولأن أهل الحجاز لم يكونوا يناصرون ابن الزبير ويتحملون معه مشقات الكفاح ضد الأمويين لكى يرحل عنهم مع الأمويين الى دمشق ، كما اقترح عليه ذلك حصين بن نمير قائد الجيش الأموى وأمير المدينة من قبل الأمويين ..

الحق ان بين دفتى هذا الكتاب سيرة بطل من أبطال الاسلام ، وقصة كفاح فاتح من كبار

الفاتحين المسلمين . **ولكن الكتاب حين يجلو لنا حياة رجل ، فانما يصور لنا تاريخ أمة بما اكتنفته بها الأيام من خلافات ومطامع وعداوات امتحن بها كثير من الرجال وكل عبرة تبدو في مزدحم هذا العراك والنضال الحامي يجليها لنا المؤلف مرة وغير مرة ..** وهـذا التكرار ظاهرة تلفت النظر في هذا الكتاب . كالتكرار بين صفحتي ٤ ، ٤٥ في انضمام أم المؤمنين عائشـــة الى الزبير وطلحـة . وكالتكرار بين صفحتي ١٨ ، ٤٥ في الحديث عن كيف عهدت عائشة لعبد الله بن الزبير بالصلاة بشيوخ قريش يوم موقعة الجمل ، فصلى خلفه ابوه الصحابي الجليل الزبير بن العــوام ، مما كان موضعا لانتقاد المسلمين ، وكالتكرار بين صفحات ٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، وكالتكرار بين صفحتي ٧٦ ، ٨٥ في الحديث عن نشأة يزيد بن معـاوية في وسط مظاهر الملك ، بعيـــدا عن البـاديـة والحجاز ، ونشأة عبد الله بن الزبير في بيئة الحجاز التي اكسبته كثيرا من الصلاح والتقوى ..

وقد يتقارب التكرار بين الصفحات الى حد يأتي معه الخبر في صفحة ، ثم يعاد بنص عبارته بعد صفحة تالية أو صفحتين لا تزيدان ! ففي صفحة ١٠٨ أن يزيد بن معاوية (قرأ رسالة الأمويين ، فثار غضبه ، وأيقن أن سياسة اللين والتسامح لم تعد تجدي مع أهل المدينة) وفي صفحة ١١٠ — أي بعد صفحة واحدة فقط — يقول مؤلفنا في بداية فصل جديد : (رأى يزيد أن سياسة الحلم واللين لم تعد تجـــدي ، ورأى العودة الى سياسة العنف والشدة) وهــذه الجملة الأخيرة قد نسيت أن اقول لك انها جاءت ايضا في ص ١٠٨ هكذا : (ورأى أن يحيد عنها — أي سياسة اللين — الى سياسة الحـــزم والعنف ..) .

وعجيب جدا ان مؤلفا مؤرخا كالدكتور على حسنى الخربوطلي الذي يتعقب الأخبار والأحداث هنا وهناك ، ويستوفي بعض الحوادث حقها من التعليق عليها ، تفوته — بعض الحين — تعليقات وتحقيقات على بعض الأحداث أو بعض المواقف التي كانت تستحق الوقوف عندها ، ففي صفحة ١١٣ — وهو يتحدث عن واقعة الحرة — لم يذكر له حتى ولو بالاسم ، اسم عبد الله بن حنظلة الغسيل الذي بايعه أهل المدينة على زعامتهم في حركة المقاومة ليزيد بن معاوية .. أما كان هذا الرجل جديرا أن يشار الى اسمه في كتاب يتناول دراسة عن عبد الله بن الزبير ؟ ومن عجب أن المؤلف ذكر عبد الله بن حنظلة في كتاب له عن « الدولة العربية الاسلامية » صفحة ٢٤٠ وذكر حركة مبايعة أهل مدينة الرسول إياه ، ثم اغفل الاشارة اليه في كتابه هذا عن ابن الزبير ، مع أن هنا كان مكان ذكره ..

وفي صفحة ١١٥ من كتابنا هذا الذي نعرضه ، اغفل الدكتور الخربوطلي الاشارة الى وعــد ابن الزبير للمختار الثقفي بتحقيق أطماعه ، مع انه ذكر ذلك في كتابه عن « الدولة العــربية الاسلامية » صفحة ٢٠٥ حيث يقول هنـــاك : (كما انضم اليه — اي الى عبد الله بن الزبير — المختار بن أبي عبيد الثقفي ، بعد أن وعده الزبير — يريد ابن الزبير — بتحقيق بعض أطماعه) . وهــذا الــكلام كان أولى أن يذكر في كتاب « عبد الله بن الزبير » فهو مكانه المناسب .. وقد عبر المؤرخ المسعودي في الجزء الثالث من « مروج الذهب » عن هذه الوعود الزبيرية ، بأنها شرائط . وهذا تعبير دقيق ، على خلاف تعبير الدكتــور الخربوطلي الذي لا يوحي بدقة ، فان عبـــارة المسعودي تدل على أن العرض كان من ناحيـــة « المختار الثقفي » بشروط اشترطها ، وان عبد الله ابن الزبير لم يكن واعدا ابتداء .. ويجمل بنا أن ننقل هنا عبارة المسعودي المؤرخ حيث يقول : (.. وابن الزبير في المسجد ، ومعه المختار بن أبي عبيد الثقفي : داخلا في جملته ، منضافا الى بيعته ، منقادا الى امامته ، على شرائط شرطها عليه ، لا يخالف له رأيا ، ولا يعصي له أمرا ..) .

* * *

قلت لك — أيها القارىء الكريم — أن الدكتور على حسنى الخربوطلي يقرأ كثيرا ، وينقل من الكتب التي يقرؤها كثيرا . والقراءة مزية العلماء والباحثين والمؤرخين وفضيلتهم ، فان مؤرخا

لا يستطيع أن يكون كذلك ، الا اذا قرأ كل مصدر ، واستوفى كل مرجع . ومن حسن الحظ ان الدكتور الخربوطلي يحسن قراءة الكتب التاريخية القديمة ، بما فيها من علو طبقة البيان العربي أحيانا ، وبما في بعضها من التواء الأساليب ، وضعف اللغة بعض الحين . وقد يكون هذا الالتواء المفضى الى غموض في النص ، نتيجة لنقص ومسخ في **المخطوطات التي تطبع** غير محققة ولا كاملة . كما نجده – مثلا – في كتاب « فتوح البلدان » في طبعتيه القديمة المصرية وطبعته الحديثة اللبنانية ، وكما نجده ايضا في كتاب « الفخرى » لابن طباطبا العلوى ، وفي كتاب « تاريخ اليعقوبي » بما فيه من نقص ومسخ كبير فيطبعتيه : العراقية القديمة ، وطبعته اللبنانية الجديدة الأنيقة الجيدة الورق الجميلة الحروف المطبعية .. والتي لم يعن فيها **ناشرها** **بضبط ولا تحقيق ..**

ومع هذه القراءات الكثيرة من الدكتور على الخربوطلي ، كان أيسر الظن ان يفيد من قراءاته هذه ، وأن تستقيم لغته ونحوه العربي ، كما استقام له الأسلوب الواضح المعبر . ولا شك إن النحاة واللغويين سيغضبون عليه اشد الغضب حين يجدونه يستهين بالقواعد التي وضعوها واصلوا بها للغتنا العربية الشريفة بعد استظهار للقرآن الكريم ولغة الشعر والادب والنثر في العصر الجاهلي ، وفي العصور الأولى للاسلام ..!

وغضب اللغة واللغويين أشد من غضب التاريخ والمؤرخين ! فان المؤرخ لا تكمل اداته مالم يكن لسانه وبيانه في تعبيره وعباراته التاريخية قدر براعته ومقدرته في التاريخ نفسه ..

والا فكيف تعلل ورود أمثال هذه الأخطاء والأوهام الشنيعة في قول صديقنا المؤرخ الدكتور على حسني الخربوطلي ؟ :

- صفحة ١٧ (في الرابعة عشر من عمره) ، والصواب : في الرابعة عشرة .
- صفحة ٦٨ (حتى لا ينقضونها) ، والصواب : حتى لا ينقضوها .
- صفحة ٦٩ (فكتب رسائلا) ، والصواب : رسائل ، لأنها ممنوعة من الصرف .
- صفحة ٨٤ (قاصدا اخيه) ، والصواب : أخاه ، لأنه مفعول به لاسم الفاعل .
- صفحة ٩٤ (على ان يكون الولاة الأمويين) والصواب : الأمويون ، لأنها نعت للولاة .
- صفحة ٩٦ (لم يجد من يرسله لقتال ابن الزبير سوى اخاه) والصواب : أخيه لأنه من الأسماء الخمسة وهي **تجر** بالياء .
- ٩٧ (اذا علمنا ان البيئة الحجازية فقيرة لأدركنا) ، والصواب : أدركنا بغير لام في الجواب ، لأن اذا الشرطية لا يقترن جوابها باللام .
- صفحة ١٠٤ (وان لم ينطوى) والصواب : حذف الياء من الفعل المنقوص المجزوم .
- ١٢٣ (فقد خرج هؤلاء الأمويين) والصواب : الأمويون لأنها فاعل .
- صفحة ١٢٨ (وكان ذو شخصية قوية) والصواب : ذا ، لأنه خبر كان منصوب بالألف .
- صفحة ١٩٦ (حتى لا يفرون) والصواب : حتى لا يفروا ..

وهناك عشرات وعشرات من امثال هذه الأخطاء النحوية واللغوية التيتفقأ العين، وتذهل النفس ، وتجعل المرء يتساءل عن سر هذا الوهم الفظيع : أهو اهمال من المؤلف ؟ أم شيء آخر غير الاهمال لا نود أن نلصقه به ، أو ان نضيفه اليه ؟؟

وقد هممت ــ دفاعا عن صديقنا المؤلف ــ أن أعزو الأخطاء الى المطبعة ! فرأيت من الظلم ان تحتمل المطبعة ما ليس يحتمل ! وان ينسب اليها من الخطأ ما لا دخل لها فيه .. وان كنت أكاد اجزم بأن استعمال اسم الوليد بن عقبة بن أبى سفيان ــ بدلا من عتبة بالتاء ــ هو من الأخطاء المطبعية التى فات المؤلف تصحيحها أو استدراكها .. فالوليد بن عتبة بن أبى سفيان هو صحة الاسم كما ورد فى كتب التاريخ كلها وكتب التراجم كاليعقوبى ، والأعلام لخير الدين الزركلى ، وتاريخ الأمم الاسلامية للشيخ محمد الخضرى . وابن عتبة هذا هو صاحب الحوادث مع الحسن والحسين ابنى على رضى الله عنهما ، وعبد الله بن الزبير . أما الوليد بن عقبة ــ بالقاف بعد العين ــ فهو ابن ابى معيط ، اخو عثمان ابن عفان لأمه ، ولا شأن له مطلقا بأخبار عبد الله ابن الزبير ..

بقيت هناك بضعة أخطاء من المطبعة واضطراب فى تنفيذ الحــروف ادى الى اضطراب فى بعض العبــارات ، كما حدث فى العبارة التــالية صفحة ١٩٩ (وعلم عبد الله بن الزبيرة بســوء سياسة ابنه حمزة فعزله ، وأعاد أخاه مصعب الى ولاية العراق ، ولكن الفترة القصيرة التى شهدت حمزة فعزله ، واعاد اخاه مصعب الى ولاية العراق . ولكن الفترة حكم حمزة ادت الى تخلى بعض أنصار ابن الزبير عنه) وهى عبارة كما ترى مضطربة ، وقد جاء اضطرابها من الطابع لا من المؤلف ، ومن السهل ردها الى الصواب ..

وبعد ! فاننى على ثقة وأمل كبير ــ بعد هذا كله ــ أن نلقى صديقنا الكريم الدكتور على حسنى الخربوطلى فى كتاب تاريخى جديد له وقد أحسن الى لغة العرب ، كما هو محسن دائما الى تاريخ العرب والمسلمين ..

محمد عبد الغنى حسن

ديوان عماد

ذهب كثيرون من الادباء والنقــاد مذاهب شتى فى تعريف الشعر وتفسيره ولكنهم أجمعوا كلهم على أن تجربة شعورية تعبر عنها الفاظ منتقاة لاشعوريا ، لها تركيب خاص من ناحية الايقاع والترابط الصوتى ، تستطيع أن تنقل هذه التجربة الشعورية من نفس الشــاعر الى نفس المتلقى بكل ما تحمل هــذه الألفاظ من مدلولات وايقاعات وظلال . واذا كان هــذا التعريف ناقصا ــ شأن كل تعريف يمس جوهر الفنون ــ فانه على الأقل يقرب لنا أرضــية ثابتة نستطيع ــ استنادا اليها ــ أن نحــاول تحديد ماهية الشعر وخصائصه عــلى وجه التقريب .

ومن البدهي أن الشعراء يختلفون فى درجة الاقتراب من روح الشعر الحق ، والعمالقة هم الذين يحققون خصائصه المتكاملة فى انتاجهم .

واذا كان العقاد من عبقريات أدبنا الحديث ومن كبار أعلامه فانه كصاحب مدرسة شعرية لم يستطع أن يحقق لانتاجه الشــعرى روح التكامل الفنى ، فعلى الرغم من غنى شــعره الفكرى فان فقدان الموسقة الاسلوبية فى أغلب هذا الشعر اصابه بنقص خطير هو فى حد ذاته من اهم مكونات كل شعر متكامل .

تأليف

محمود عماد

الناشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة
٢١٣ صفحة - ١٤×٢٠ سم - الجزء الثانى

واذا كان العقاد أيضا قد لعب دورا هاما فى حركة التطوير الشعرى بنماذجه الشعرية الرائدة التى اختطت دربا جديدا بعيدا عن الدروب المطروقة ، وبنقده النظرى والتطبيقى ، فاننا لا نرى أثرا لما حققه هو أو غيره من الرواد فى هذا الديوان ، على الرغم من أن صاحبه صديق قديم للعقاد .

ان محمود عماد واحد من أبناء مدرسة شعرية لها انتاجها الذى عرف بخصائص معينة تجاوزها الشعر العربى الحديث ان لم نقل اهملها . ومن هذه الخصائص روح التقرير والاهتمام بالفكرة الذهنية ، والحق يقال ان هاتين الخصيصتين طبعتا كثيرا من شعرنا القديم بطابعهما ، فقد كان ديدن الشاعر القديم تلخيص تجربته فى بيت او أبيات تقوم « الحكمة » فيها كغرض أساسى يسعى اليه ، والحكمة كما نعرفها تقرير وبلورة ذهنية للتجربة ، ولعلك ترى مصداق ذلك فى الأبيات التالية :

يا شباب العلم فى الوادى احييكم عموما
وأحيى داركم اذ
عيدت عيدا فخيما
عيدها الفضى نلقى
فضلها فيه عميما
جبذا ذهبا قد كان أو ماسا كريما
ليت منها عشرات
تدرأ الجهل الوخيما
ليس غير العلم من يرسم للدنيا الرسوما
ان يشأ كانت عذابا
أو يشأ كانت نعيما
ان يشأ آوت عبيدا
او يشأ آوت قروما

فانك تحس — الى جانب روح التقرير التى جعلت هذه الأبيات مسرفة فى النثرية لعرضها الأفكار الذهنية — جو الافتعال السردى الذى تتناكر فيه الألفاظ وكأنها لبنات فى جدار غير متجانس ، كل لبنة منها تخالف الأخرى فى الشكل واللون والحجم . ولعلنا ندرك أيضا أن احساس الشاعر باللفظة وامكانياتها الموسيقية احساس ضئيل . وهى ظاهرة شائعة فى الديوان كله ، بل ان هذا الاحساس ينعدم تماما فى أبيات لا نعتبرها من الشعر ولا من النثر .. كقوله :

ان الضعيف يتيم عنـــدهم وهمو

له – وان لم يكن من آلهم – آل

وقوله في نفس القصيدة :

ان الضعيف الأصيل الضعف ذو نشب

وغـــير ذى نشب فى الضعف محتـــال

وقوله :

او تكن جئتنا لتحمى فـــردا

فهو والله مات مذ نصف قرن

وقوله :

طبت اذ طابـــا فلما عطبـــا

ثم عنى وليـــــا لم اطب

ان موسيقى الشعر علاقات صـوتية بين الالفاظ ، ومن البدهى انها من أهم عناصره ان لم تكن أهمها جميعا ، وقد وصل الرمزيون الى انها جوهر الشـــعر الوحيد ، فحاول بعضهم الوصول بالقصيدة من ناحية ايقاعها اللفظى الى مستوى المقطوعة الموسيقية دون أن يقدم معنى واضحا او صورة متكاملة مدركة ، لأن غرضه هو الايقاع اللفظى الذى ينقل احساسه القائم الى الآخرين كما تفعل المقطوعة الموسيقية .

الى هذا الحد بلغت أهميـة الموسيقى فى الشعر ، وهى موسيقى أكثر خفاء وأعمق أبعادا من الموسيقى الخارجية المتمثلة فى ايقاع الوزن او تقسيم البيت الشعرى الى جمل متساوية أو فى الجناس بنوعيه كما هو معروف .

وافتقاد القصيدة – اية قصـيدة – الى ايقاعها الخاص الملائم لنوعية التجربة الشعورية التى تعبر عنها بفقدها شاعريتها ، ذلك ان هذه الموسيقى مرتبطة باحساس الشاعر وانفعاله . **ومن البـدهى أيضا أن عاطفة الشاعر لا تتمثل فى معانيه وصوره فحسب ، وانما تتمثل فى الدرجة الأولى فى ايقاعه الذى ينقل ذبذبة هذه العاطفة ودرجتها بل ومناخها العاطفى الى نفس المتلقى ، وهذا الايقاع يعطى أبعـادا أعمق من مدلول الالفاظ المباشر .**

انظـر الى أبيات أبى ماضى وهو يخاطب لبنان بعد هجرة طالت :

وطن النجـــــوم أنا هنا

حدق .. اتذكر من انـــا ؟

المح فى الماضى البعيـــــد فتى غريرا أرعنا

المقتنى المـــلوك ملعبـــه وغـــير المقتنى

يتســـلق الأشجار لا ضجرا يحس ولا ونى

فلن تجد فخـــامة فى التركيب أو ديبـــاجة محبوكة – كما يتوقع البعض فى الشعر العظيم فى نظرهم – ولكن ستجد الفـــــاظا عادية مما يستعمل كل يوم ، ولكن اى موسيقى اليفة صادقة بلورت انفعال الشاعر عن طريق هذه الالفاظ العادية ؟ وأى ايقاع حنون ودود يلائم عاطفة الشاعر العائد الى وطنه بعد غيـاب ؟ **ان ايقاع التعبير اللفظى ليس شيئا منفصلا عن معانى القصيدة وصورها وانما هو بلورة لكل مكوناتها من انفعال وصور وأفكار ،** ففى الشعر لا تقف الألفاظ كما تقف فى النثر عادة وحيـدة منكمشة ، فان الترابط الصوتى بين حروفها يكون سبيكة نغمية هى أقرب الى السمفونية التى تصل نغمتها الى اذنك نغمة واحدة وهى فى نفس الوقت عطاء عشرات الآلات المختلفة تعزفها فى وقت واحد ، فتتشابك الأصـوات بدرجات متفاوتة فى اطار هذه النغمة الواحدة .

فاذا كان الايقاع مهما الى هذا الحد ، فهل تستطيع أن تحس فى الأبيـات التالية التى يتحدث فيها الشـــاعر عن فاروق ملك مصر السابق شيئا منه :

مضى ملك الغــابة المستبد

يحل بهـــا كل ما لا يحـــل

يدان البـرىء ويعفى المسىء

ويغصب مال ويخـــلى محل

ومن قاد جيش رجـــال يذل

ومن قاد جيش نســـاء يجل

ويعطى الجنود سلاحا يصيبه

ـهو ويقى من عليهم يســـل

ويلقى بهم للعـــــدو طعاما

وبالنصر بعدهمـــو يحتفـــل

ويقصى البعول لأمــر صــغير

وتغشى البيوت لأمر جـــلل

ولو عاد بعـــــل الى البيت
يقتل ثم يثاب الذى قد قتـــل
وهل يعرف الوحش الا الفسا
د والا السفاد اذا ما انتقـــل

ان الأبيات كما نرى تسلك مسلك اخواتها السابقات فى عرضـها التقريرى لأفكار ذهنية لا تسندها روح شعرية أو لمسة فنية ترتفع بها من مستواها النثرى الى حرم الشعر . فاذا قلنا عن هذه الأبيات أنهـا نثر تفسيرى ما عدونا وجه الصواب . وتجرنا هذه الظاهرة الى ظاهـرة اخـرى مكملة لها هى ايراد « الأكليشيه » التعبيرى القديم مثل الحديث الشاعر عن « نار الغضا – ص ٤٠ » و « ويلمها تبعات – ص ٣٨ » و « وغيـر ذى نشب – ص ٣٩ » و « صـبا بالصمصامة الذكر – ص ٣٣ » و « الصبا والدبور – ص ١٩٠ » ، فان هذه التعابير فضلا عن ان اغلبها وليد البيئة الصحراوية فانها جميعا قد فقدت ايحاءها – ان كان لها ايحاء – لكثرة تداولها وجريانها على الألسنة عصورا طويلة .

ومن نافلة القول والحديث المعاد ان نقول ان لكل شاعر زوايا التقاطه ورؤيته الشعرية الخاصة التى بها يحقق ذاته فى شعره فيكسبه طابع شخصيته وبصمات نفسيته ، ومن مكونات هذا الطابع ابتداع التعبير الشخصى الدال الموحى ، **فاللغة ألفاظ ميتة فى القاموس ، ولكن مفرداتها فى التعبير الشعرى تكتسب حياة ثرية عن طريق تركيبها الخاص الذى يقوم – عند كل شاعر موهوب – على الاحساس بكيمائية موسيقاها ، وعن طريق هذا التركيب الجديد للمفردات تولد الصور الجديدة الحية ، ومن هنا جرت اعادة التعابير القديمة روح التقرير وبالعكس ، فهما مرتبطان ترابطا متكاملا ، فالتقرير بطبيعته يستلزم المنطقة العقلية ، وهذه تؤدى بدورها الى النثرية ،** والنثر هو القالب الذى يتسع للأفكار الذهنية والتفريعات والتفاصيل وكل هذا مناقض لجوهر الشعر الذى يقوم أصلا على اللمحة الدالة والاشارة الموحية أو بعبارة اخرى « التكثيف » الشعورى والتركيز فى الخلود ... ومن هنا قوة تأثير الشعر فى النفوس ... **تستتبع الصور الثابتة ، تلك التى تتجمد فى ابعادها الحسية دون حياة ، بل انه يجر لا الى الصورة الثابتة فحسب ، ولكنه يستدعى الصور الطافية فى الذهن أو الصور المرئية الساذجة .**

ولعلنا نرى ذلك فى الأبيات التى وقف الشاعر فيها امام البحر متذكرا صلته به :

لم الهذا كنت الغالى فلا ابدى احتفـــالا
ها هو الشاطىء مبتسما نسيمـها وامتثالا
فندق يغشاه من يغشى فلا يشكو الملالا
ها هو المـاء المصفى كزجاج فيك ...
ظاهر البـاطن لا يرقب عن سر سؤالا
ها هى الأمـواج لا تألو اتصالا وانفصالا

وعلى الرغم من عمق التجربة فانك لا تجد ابعادها فى الأبيات السابقة فلا زال الحديث الى البحر يأخذ شكل السرد الذى يتناول السطوح الخارجية .. حتى الصورة الخيالية التى ترسم عن طريق التشبيه صورة ساذجة .. فها هو الماء المصفى .. مثل ماذا ؟ مثل الزجاج السائل .. والأمواج .. انها لا تألو انفصالا واتصالا .. وها هو الشاطىء مثل الرمال .. فهل نرى فى هذه الأبيات رؤية شعرية خاصة ؟ وهل فيها ما يدل على عاطفة معينة يفصح عنها الشاعر ؟ يبد هنا سؤال واجب وهو :

هل عمل الشعر نقل الواقع المرئى كما هو بحيث ان العين تدرك عن طريق الرؤية المباشرة سواء أكانت عين شاعر أو غير شاعر ان الأمواج تنفصل وتتصل وانها تبل الرمال .. فهل هذه حقائق كونية جديرة بالتسجيل ؟ وان كان لابد من تسجيل الواقع أيسجل بهذه المباشرة والتقريرية والتسجيل الفوتوغرافى ؟ انما فضل الشاعر على عدسة الكاميرا ؟ .

ان المقارنة بين تجربة تعرض لها صاحب الديوان وشاعر آخر من شعراء الشام توضح كلامنا السابق . فللشاعر قصيدة بعنوان « اسلوانا » وهى تتناول تجربة تعرض لها الشاعر الآخر هو ابراهيم

ناجى ، وان كان هناك خلاف ضئيل بن التجربتين فان جوهرهما واحد .

يقول صاحب الديوان :

سلوه لماذا يريد الفـــرارا
وليس يطيق لديها القــرارا

بقاع من الأرض كانت لــــه
زمانا محجا وكانت مـــزارا

وكان يحب الرجـــوع اليهـا
ولو جاز بيـدا لهـا أو بحارا

تراءت له امسى جنـــة عـدن
فكيف تراءت له اليـــوم نارا

اذاك لأن بهـــا ذكـريات
أثيرت كما هجت سربا فثـارا

وان الألى ســـكنوها تولوا
فصارت خرابا وكانت عمـارا

خرابا وان سكنت بعـــدهم
ولم يهدم الدهر منها جـدارا

فالشاعر يتحدث عن مكان له فيه ذكريات ، هجره أهلوه فأصبح مزاره نارا فى نظره وان كان لا يزال — بعد الهجر — حيا بسكانه الجدد . التجربة اذن تجربة واقعية لها أثرها فى نفس الشاعر ولكنه حينما عبر عنها لم يخـرج عن حدود اللمسة الخفيفة والتقرير الساذج ، بل انه — كعادته — ينظر اليها كقضيـة تناقش فيدير الأسئلة والاستفسارات وبذلك ماتت التجـربة الحية الهازة للمشاعر ، فاذا نظرت فى الأبيات فلن ترى صورة موحية أو تعبيرا مكثفا لعاطفة .. بقاع من الأرض كان يزورها « انظر الى لفظـــة « بقاع » وتأمل سماجتها .. ثم راجع التعبير كله « بقاع من الأرض » فى مجال التعبير عن منزل الأحباء ، هذا التعبير الذى لا يحدد مكانا معينا يضفى ظلا من واقعية التجربة .. » وامتنع عن زيارتها لأن ساكنيها تولوا عنها .

ولا شك أنك صدمت بهذا الســؤال التفسيرى الذى يبعدك عن فنية الشعر ويبدهك بروح المنطق الغليظ حينما حاول الشاعر تعليل ابتعاده عن هذا المكان المحبوب فقال :

اذاك لأن بهـــا ذكريات
أثيرت كما هجت سربا فثـارا

ودعك من (اذاك) هذه وثقلها ولكن انظر الى (جنة عدن) التى جرت وراءها — عن طريق التداعى — لفظة النار لتتم المقابلة الساذجة بين النعيم والجحيم !

اما ناجى فهو يزور بيت الحبيب بعـد أن تركه الحبيب ، وانت منـــذ اللحظة الشعورية الأولى فى قصيدته تحس انك أمام تجربة انسانية ذات أبعاد :

هذه الكعبة كنا طائفيهـــــا
والمصــلين صباحا ومساء

كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها
كيف بالله رجعنا غربـــــاء

دار أحلامى وحبى لقيتنــــا
فى جمود مثلما تلقى الجـــديد

أنكرتنا وهى كانت ان رأتنـــا
يضحك النور الينا من بعيـد

ها هنا تقف مبهورا بروعة المشـــهد ودقة الصورة وحلاوة الايقاع الملائم لمناخ هذه التجربة الشـعورية ، فاذا دققت النظر وامعنت الذوق بدت لك دقة التعبير التى لا يمكن لشاعر عظيم ان يتخطاها ، **فليس الشعر كلاما يرص وقوالب لفظية تنثر وانما هو دقة فى التعبير بحيث انك لو رفعت لفظا واحدا ووضعت مكانه مرادفا له يؤدى نفس معناه اختل السياق وفقد البيت ركنا مهما من فنيته** ، فدقة العبير هذه تستلزم أن يقول ناجى « طائفيها » فى مجـال الحديث عن (الكعبة) ولو قال « زائريها » مثلا ما بلغ الأوج التصويرى المتكامل الذى بلغه . ثم انظر الى صورته الحية النامية (يضحك النور الينا من بعيد) بما تحمل من قوة الايحاء وتصوير الترحاب والبشر والألفة .

د . كمال نشأت

ديدرى فتاة الأحزان

تأليف : جون ميلنجتون سينج

ترجمة : على جمال الدين عزت

مراجعة : الدكتور عبد الغنى خلف الله

تقديم : د. عبد الله عبد الحافظ متولى

تعتمد هذه المسرحية على احدى الملاحم الشعبية الايرلندية المعروفة . ولقد انعكست الأساطير والملاحم الشعبية – التى تشكل ميراثا غنيا فى المأثورات الشعبية الايرلندية – انعكست بصور مختلفة فى الادب الايرلندى الحديث .

كما تناول كتاب المسرح كثيرا منها فاستلهموها شعر ونثرا .

ان اغزر الوان الأدب الملحمى الشعبى هو الملاحم البطولية التى تتعلق بفعال الأبطال الايرلنديين فى الماضى السحيق ، وقد حفظت المخطوطات اللاتينية – التى كتبت فى القرن الثانى عشر – ما عاش ، حتى ذلك الوقت ، من هذه الملاحم .

وتتمثل هذه الملاحم فى أربع حلقات أقدمها فى الزمن هى الحلقة الأسطورية ، وأحدثها هى الحلقة التاريخية المعروفة بحلقة الملوك ، وتتوسط هاتين الحلقتين حلقة « الفتوة » التى ترتبط باسم « الفينيين The Fenian » ، وهم عصبة من المحاربين يظن انهم عاشوا فى ايرلندا فى الفترة من سنة ٣٠٠ ق م الى سنة ٢٨٤ م . وابتدعوا نظاما للفتوة كانت له تقاليده التى ارتبطت بهم .

أما أنبل الملاحم وأروعها فى الأدب الشعبى « فهى حلقة ألستر Ulster » التى تتمركز حول شخصية « كوهلن Cuchalnin » ، والملك كونور ماك نيسا Conor mac Nessa ومايفى maeve ملكة كونوت ، والزمن الذى يؤقت فيه هذا التراث هو القرن الأول الميلادى .

اما انبل الملاحم واردعها فى الأدب الشعبى الايرلندى فهى قصة « ديدرى وأبناء أوشنا » ، واقدم روايات هذه الملحمة ما عرف باسم « نفى ابناء أوشنا » ، وتبدأ بزيارة يقوم بها كونور ملك الستر وحاشيته لمنزل كبير قصاصى الملك



الناشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة
١٣٥ ص ١٤×٢٠ الثمن ٥ قروش

الشعبيين ، ويتضح فى نهاية الزيارة أن زوجة القصاص فى حالة وضع ، وطرق الأسماع صراخ الوليد ، فيعاب رجال البلاط الرعب خوفا من أن يتسرب هذا النبأ الى كاهن الملك ، لأن هذا الكاهن كان قد تنبأ – فى منظومة مبهمة – بأن الوليد سيكون طفلة ، وان اسمها سوف يكون « ديدرى » ، وسوف تكون جميلة جمالا لا يمكن وصفه ، وتكون سببا فى مذبحة عظيمة يذهب ضحيتها رجال « الستر » ، وتنتهى بدمار المملكة .

وتولد الطفلة ، ويذهب بعض المحاربين لقتلها وهى فى المهد ، ولكن الملك يقول : لا ، انني سآخذها واربيها ، وسوف أتزوجها .. وعلى ذلك فان رجال « الستر » لا يجرؤ أحد منهم على الوقوف فى وجه الملك ، تماما على حد تعبير سنج :

« ففى النهاية لا يوجد انسان يستطيع أن يقف ضد « كونور » ! لأنه اذا وقف انسان ضده ، فلسوف يجنى الندم ، وستقصر أيام حياته » .

وتدرج الطفلة فى قصر الملك ، وتنمو ، وتصبح أجمل امرأة شابة فى ايرلندا ، وفى أحد أيام الشتاء كان أبوها بالتبنى يقوم بسلخ عجل صغير ، وكان قد أضجعه على الثلج ، ويحط غراب ليشرب من الدم ، فتقول « ديدرى » متسائلة :

« أيوجد انسان فيه هذه الألوان الثلاثة : شعر فى سواد الغراب ، ووجنة كالدم ، وجسد أبيض كالثلج ؟ » .

وكان الملك يعرف هذا الرجل المختار انه « نايزى » أحد أبناء « اوسنا » ، وتحتال الفتاة للقائه ، بعد أن عرفت بخبره من مربيتها ، وأخيرا يأمر الملك بطرد أبناء « اوسنا » الثلاثة ومعهم « ديدرى » من ايرلنـــدا ، فيذهبـــون الى « اسكتلندا » ، ويدخلون فى خدمة ملكها ، ومن ثم فانهم يحتلون القلاع ، ولكن أمرها ينكشف فتبدأ متاعبهم من جديد ، اذ يرسل الملك اليها رسولا يخطبها الى نفسه سرا ، ولكنها تفضى بالأمر الى « نايزى » ، ويعلم الملك بذلك ، فيوفد الأخوة الثلاثة فى بعثة خطيرة .. لكنهم ينجون من الهلاك .

وفى النهاية يعودون مرة أخرى الى ايرلندا فى حماية « فيرجس » وبعض المحـــاربين الذين يضمنون سلامتهم ، ولكنهم عنـــدما يبلغون « الستر » تصل النبوءة القديمة الى منتهاها ، اذ تنشب الخصومة بين « فيرجس » وبين الملك ، ويقتل فى الصراع كثير من الرجال .

اما سبب الخصومة فهو أن الملك كان قد أوعز الى أحد اتباعه بأن يقذف بحربته ترحيبا بعودة الاخوة الى الوطن ، على أن يتعمد فى نفس الوقت أن تصيب الحربة « نايزى » وتحطم ظهره .

وتنتهى الملحمة بأن تضرب « ديدرى » رأسها فى احدى الصخور حتى تتحطم حزنا عـــلى « نايزى » .

هذا هو موجز القصة التى اجتمعت فيها كل الفاجعة . والتى نجد فيها « ديدرى » تمثـــل شيئين فى نفس الوقت : البطلة ، وجالبة الشر على السلام ، فى البداية تجتمع لها المقدرة على السيطرة والتدبير ، ولكنها فى نهاية القصة عندما تنسى كل هذه الأشياء تصبح شخصية دراميـــة تعبر عن قيمة فاجعة .

النص الايرلندى لهذه الملحمة ظهر فى ثلاث مخطوطات ، أقدمها وأكثرها ذيوعا هى مخطوطة القرن الثانى عشر التى حفظها كتاب « لينستر Leinster » ، الذى كتب حوالى سنة ١١٦٠ ، وان كانت الرواية التى لخصناها لهـــذه الملحمة تعتبر أقدم فى الزمن من المخطوطات التى وعتها ، فاللغة فى الأجزاء النثـــرية منها تشير – فى الحقيقة – الى القرن الثامن او التاسع كتاريخ للتأليف ، وبعض المنظومات أقدم من ذلك بقرن او اثنين .

وكما نجد قصة «ديدرى» فى الحقبة المتأخرة من الأدب الايرلندى القديم نجدها كذلك فى فجر الأدب الحديث ، وفى الأدب المعاصر ، ونجـــدها أيضا فى أشكال مختلفة من الأدب الانجليزى ، وفى الأدب الاسكتلندى الكلتى .

ولقد نشرت هذه الملحمة اكثر من مـــرة ، وترجمت الى الانجليزية والفرنسية والالمانيـــة والروسية . وتختلف روايات الملحمة العديدة فى التفاصيل ، وفى بعض هذه الروايات يقـــوم « كوهلن » بدور الأخذ بثأر الأخوة الثلاثة الذين قتلهم « كونور » ، بعد أن قام كاهنه ـ بما يملك من قوى السحر ـ بتجريد الاخوة من قوتهم .

وقد مزجت « الليدى جريجورى » هـــاتين الروايتين فى كتابها الذى اصدرته عن كوهلن فى سنة ١٩٠٢ . وقد عالج الشـــاعر الايرلندى « ييتس » هذه القصة فى مسرحية من فصـــل واحد كتبها بالشعر المرسل .

« المسرحية »

أما « سنج » كما سوف نرى فقد عالجها فى مسرحية نثرية ذات ثلاثة فصول ، وتبدأ المسرحية بزيارة « كونور » لديدرى ، ويتضمن الفصـــل الأول ملابسات هذه الزيارة ، وهرب ديدرى مع « نايزى » .

أما الفصل الثانى فقد خصص للمحاجة التى دارت بين « ديدرى » ونايزى عندما كانا يناقشان فكرة مغادرة « اسكتلندا » . ويتضمن الفصل الأخير العـــودة الى الوطن ، كما يتضمن قصة القتل ، ويضيف «سنج» شيئا آخر غير متوقع ، هو حالة الخضوع التى تعترى « كونور » وهو يخطب « ديدرى » بعد أن قتل الأشقاء الثلاثة .

وقبل أن نتحدث عن الترجمة العربية التى قام بها الأستاذ على جمال الدين عزت ، ينبغى أن ننوه بالمقـــدمة الوافية المستفيضة التى كتبها الدكتور عبد الله عبد الحافظ لهـــذه الترجمة متحـــدثا فيها فى تحليـــل دقيق عن الكاتب الايرلندى سنج وفنه الدرامى ، ملقيا الضوء على جوانب هذه المسرحية الفذة .

ولد سنج فى ١٦ أبريل ســـنة ١٨٧١ فى « نيوتاون لتيـــل ـ New town little » ، وهى قرية قريبة من دبلن عاصمة ايرلندا الحرة . وقد التحق بكليـــــة « ترينتى ـ T.C.D » فى سنة ١٨٨٨ وحصل منها على درجة الليسانس فى سنة ١٨٩٣ . وبدأ فى هذه الفترة يميل الى الموسيقى .

ثم ذهب الى المانيا ، ومنها راح يتجول فى ربوع أوربا . وفى ســـنة ١٨٩٨ التقى فى باريس بالشـــاعر الايرلنـــدى « وليم بتلر ييتس W.B. Yeats » الذى نصحه بالعـــودة الى ايرلندة ، ويستمد الوحى من جزر « آران ـ Aran » . ومنـــذ ذلك الوقت قضى ســـنج حياته متنقلا بين دبلن وبين جزر آران التى وجد فيها ضالته المنشودة . (ص ٣ ـ ٥) .

وفى وسط الموجة القومية التى سادت ايرلندا فى هـــذه الحقبة ـ فى الأدب عامة ، وفى المسرح خاصة ـ كتب « سنج » مؤلفاته تجاوبا مـــع الحركة الايرلندية المسرحية . وكان فى مقدمة من تولوا ادارة مسرح « الأبى » الشهير الذى افتتح فى سنة ١٩٠٤ .

فى هذه الفترة كتب « سنج » اشــــهر مسرحياته ومن بينها هذه المسرحية :

« ديدرى فتاة الأحزان » ، التى طبعت بعد وفاته فى سنة ١٩١٠ . (ص ٥ ـ ٧) .

كان من نتائج مقابلة ييتس لسنج ودعوته له أن يرحل الى جزر آران ، أن تأثر سنج تأثرا عميقا بالطبيعة التى الهبت خياله الحساس ، وبالفلاحين البسطاء الذين أثروا فيه بصـــدق احساسهم وبساطتهم .

وكان توجيه « ييتس » لسنج ينبع من اعتقاد « ييتس » بأن المسرحية الشعرية لابد أن تحد من غلواء المسرحية الواقعية الاجتماعية التى تزعمها « ابسن » ، و « شو » ، اما بتخطى حدودها الى معالجة موضوعات مستمدة من الريف الايرلندى بما يتسم به من بساطة وصـــدق احساس ، واما بالارتفاع عن مستوى الواقعيـــة الى مسرح الرمز والمثالية .

ولقد اختار ييتس الاتجاه الأخـــير ، ودفع سنج ، وليدى جريجورى الى الاتجاه الأول فى محاولته لتدعيم المسرحية الشعرية الحديثة .

ولقد صادف هذا الاتجاه هـــوى فى نفس « ســـنج » الشاعر المرهف الذى كان يرى أن الدراما كالسيمفونية لا تهدف الى أن تلقى درسا أو تبرهن على قضية من القضايا .

وهذا التجاوب العميق بين سنج وبين خبرات الحياة فى جزر آران وجد أصدق تعبير عنه فى علاقة الانسان بالطبيعة التى تتخذ فى مسرحيات سنج نغمة صوفية .

وفى مسرحية « ديدرى فتاة الأحزان » نجد الطبيعة تسيطر على الشخصيات وتلعب دورا ايجابيا فى سير الأحداث وتطور الشخصيات . ووراء هذا التفاعل العميق بين الانسان والطبيعة يكمن شعور قوى جارف بالجمال الزائل ، بقصر العمر والفناء . (ص ٨ — ١٤) .

لقد استخدم « سنج » فى التعبير عن موضوعاته التى استمدها من التراث الشعبى اسلوبا يعتمد على اللهجة الايرلندية التى يتخاطب بها سكان جزر آران ، وكما يقول « نيكول » : « بعد عودة سنج من باريس استمع الى لهجة الفلاحين الايرلنديين ، وفجأة اكتشف أن هذه اللهجة الإنجليزية الغربية تزخر بالخيال الشاعرى الذى تتميز به العقلية الغيلية Gaelic ، اكتشف انها وسيلة جميلة مبتكرة للتعبير عن افكاره وعواطفه » . وهكذا لم يكتب سنج مسرحياته بالشعر ، بل بهذه اللهجة الشاعرية التى تتلاءم مع شخوصه ومواقفه .

فى هذه المسرحية سنجد أن سنج لم يركز على الأسطورة التى تعتمد على النبوءة القائلة بأن « ديدرى » ستجلب الحزن الى « الستر » ، بل سلط أضواءه على حب « كونشبور » (١) Conchuber ملك الستر السامى لديدرى ، وحب ديدرى لنايزى أى أنه بعبارة أخرى ركز على الجانب الانسانى من الأسطورة . (ص ١٨) .

وفيها أيضا نجد عمق التأثير والمزج الجميل بين العنصر الدرامى والعنصر الشعرى . وتظهر بوضوح الامكانيات المسرحية فى الحوار والموقف باثارته وسرعته التى تتجلى فى الجمل القصيرة اللاهثة المعبرة التى يصفها الناقد الايرلندى « دنيال كوركيرى » بقوله : انها معبرة للغاية لدرجة أننا نكاد نسمع الحوار عند قراءته . (ص ١٩ — ٢٠) .

ولا تكمن روعة مسرحية « ديدرى فتاة الأحزان » فيما تثيره من احاسيس وأفكار وايحاءات فحسب ، بل فى الجو والألوان والصور الطبيعية التى تضفى بريقا جميلا على الأشياء المألوفة . (ص ٢٧) .

اذا انتقلنا من ذلك الى الترجمة العربية فلا شك اننا سنلحظ الجهد الكبير الذى بذله الأستاذ على عزت ، وقد تبين لنا مما قدمناه مدى صعوبة النص نتيجة لمحاولة « سنج » أن يتخذ أسلوبا يعتمد على لهجة سكان جزر آران ، وهو اسلوب تجتمع فيه عدة أشياء فى وقت واحد منها غرابة تركيب العبارة وبساطتها الخادعة ، وشاعريتها ، ومن اجل ذلك فان صعوبة نقل مثل هذا النص الى لغة أخرى امر لا سبيل الى انكاره . وهو يقتضى جهدا آخر غير الترجمة للمحافظة على خصائص التعبير البلاغية وعلى روحه الشاعرية الرقيقة .

ولقد حافظ المترجم فى أمانة على معنى التعبير ، وبذل جهدا كبيرا من اجل الاحتفاظ بروح النص فى العربية ، غير اننى اعتقد أنه لم يوفق فى بعض الأحيان ، فى رأيى أن السبب يعود الى امرين : أولهما هو أن رغبته فى مجاراة شاعرية النص قد جعلته احيانا يعمد الى الكليشيهات الزخرفية فى اللغة العربية كوصف الشمس بأنها تمتطى عنان السماء (ص ٦٤) :

« .. لا اخشى الموت ما دمت أربح فى مقابله كنوزا خليقة بأن تجعل الشمس تحمر من فرط الحقد ، وهى تمتطى عنان السماء :

make the Sun red with envy and he going up the heavens.

فمن الممكن التعبير عن المعنى بصورة ابسط من ذلك مثل : « ولا يخيفنى الموت كثيرا ما دمت اربح ثراء يجعل الشمس تحمر حسدا وهى تصعد فى السماء » .

(١) يفضل الكتاب الايرلنديون المحدثون نطق الاسم « كونور » كما أسلفنا . وأنظر على سبيل المثال

M. Dillon, I rish Sagas - 1959.
E. O' Faolain, Irish.
Folk-Tales-London 1960.

او وصف المطر بالغيث : « لقد جئت والغيث Shower ينهمر قبيل الفجر (ص ٧٠) » .

والغيث تعبير صحراوى كما هو معروف .

ومن ذلك ايضا وصف القمر بانه معقود اللواء : « فى وقت تتخذ فيه الشمس مكانا دانيا ، ويعقد فيه لواء القمر على سماء معتمة .. » (ص ٨٩) .

The moon has her mastery in a dark sky

وأبسط من ذلك فى رايى « وحيث يهيمن القمر فى السماء المظلمة » .

وهذه الرغبة فى مجاراة شاعرية النص قد دفعته أحيانا الى الاسهاب فى التعبير مثل : « .. وكأننا نهاجر كطيور الدج القادمة من الشمال أو صفار الطيور الهائمة فوق بحر قد لفه الظلام » (ص ٨٩) .

and we jonrneying as the thrushes come from the north, or young birds fly out on a dark sea.

« .. ونحن مرتحلون مثل الدجاج البرى القادم من الشمال ، أو مثل أفراخ الطير وهى تخفق على البحر المظلم » .

ومثل ذلك أيضا : « .. وحيث تبدو حبات العليق وهى تتدلى على الأشواك فتنتظم سدا أحمر اللون : and the berries on the thorns are a red wall .. ومن الممكن الاقتصاد فى التعبير الى « .. وحيث ثمار التوت على الأشواك سياج أحمر » .

أما الأمر الثانى فيعود الى حرص المترجم على اداء المعنى ، وقد أدى هذا الحرص الى التحيف على شاعرية الأسلوب فى بعض الأحيان باستخدام تعبيرات حرفية او غريبة مثل « طيور الدج thrushes » التى أشرنا اليها ، والتى ترجمها فى مواضع أخرى « طيور السمان » (ص ٦٠) .

ومثل : « حيتان سليمان » Sulmon « سمك السلمون » (ص ٨٧) . ومثل : « الموت شيء ردىء قبيح » (ص ٩٨) .

ومثل : هذا التعبير الغريب « نتواجد » : أليس من دواعى الأسى أن نتواجد فى هذا المكان (ص ١١١) :

And isn' tita hard Hrat you and I are this place

« اليس قاسيا أن نجتمع معا فى هذا المكان » .

ومثل هذا التعبير : « لقد كان نصيبك موتا نظيفا Clean death ، ويمكن أن يقال : ميتة طاهرة » .

ولكن مهما يكن من امر فان هذه الملاحظات العابرة لا تعدو أن تكون وجهة نظر فى التذوق ، لا تمس بحال جوهر الموضوع ، ولا تنتقص من الجهد الفائق الذى قام به المترجم فى دقة وامانة رغم الصعوبات الكثيرة فى أسلوب سنج واللغة التى استخدمها فى حواره .

فوزى العنتيل

سطور من كتاب

مسكينة قلعة الجبل !

مسكينة أرض النيل وهى تشرب حرق البؤساء لتزدرد به عهد شراهة أسياد الأعنة والتبار المنقوع فى الدم ، كأن اكثر من مائة سنة من عهد برقوق البعيد ليست كفاية عليها ! .. كأن لم تبتلع الحلقة المفرغة التى بترها عهد قايتباى آلاف النهازين من عتاة الخطف ، مارة بحجر الرحى الطاحن على يلبغا ومنطاش وفرج وخشقدم وبلباى وتمربغا وخير بك الذى أدام الله عزه ليلة واحدة ، وكأن تلك الحلقة الغاشمة كانت تنتظر طوال تلك السنوات التسع والعشرين نومة قايتباى الأخيرة لكى يطل خرتيتها الهمجى بقرنه فى سنة ١٤٩٦ ويبدأ من جديد دورانه الشنيع فى الحوش السلطانى .. »

السائرون نياما

البيروقراطية والاشتراكية

دراسة فى الإدارة والتغيير الاجتماعى

تأليف

الدكتور عبد الكريم درويش

الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية
٣١٣ صفحة
٢٤×١٧ ث ١٠٠ مـ

« البيروقراطية فى مصر تمثل أقدم نظام حكومى عرفه التاريخ ؛ حيث تمتد جذورها عبر طبقات متراكمة من الماضى .. فقد ظهرت منذ القدم وعاشت عبر السنين واصبحت حديث الساعة وموضوع الحاضر والمستقبل .. على أنها لم تلق فى يوم من الأيام مثل الاهتمام الذى تحظى به الآن ، وهذا يلقى بها فى مفترق الطرق . فهى حينا تدرس كظاهرة ثم تهاجم كمرض ، ثم تساند كواقع لابد منه .. هى موضوع نقد وموضوع اهتمام ! » ..

بهذه السطور يبدا الدكتور عبد الكريم درويش مقدمته التى عقدها لكتابه القيم عن « البيروقراطية والاشتراكية » .. ومنذ أول وهلة يحس القارىء بأنه مقبل على دراسة شيقة .. خاصة عندما يقول المؤلف فى أول سطور هذه المقدمة « .. ثم تساند كواقع لابد منه » !! .. « البيروقراطية » .. التى نصبح ونمسى فى صحفنا ومجلاتنا ومختلف وسائل الأعلام لدينا ونحن نشن عليها الحملات الشعواء .. هل يمكن ان تجد — فى ظروف مجتمعنا الثورى — من « يساندها كواقع لابد منه » ؟ ! واذا كان هناك من « يساند البيروقراطية كواقع لابد منه » .. فعلى اى « مفهوم » للبيروقراطية يستند ؟ ...

أهو مفهومها الذى درج عليه أغلب من يهاجمونها ويضعون المرادف لها فى اللغة العربية كلمة « مكتبية » ؛ أم هو مفهوم أكثر اتساعا وعمقا

وأبعادا ؟ ! .. سؤال تثيره لدى القارىء هذه المقدمة التى يقول فيها المؤلف أيضا ان البيروقراطية « قطاع اجتماعى هام لتحقيق الأهداف الجديدة » وان .. « التغيير الاجتماعى المتطرف يستدعى تغييرا متطرفا فى البيروقراطية وفى نفس الوقت تعتبر البيروقراطية وسيلة أساسية لاحداث التغيير » .. فانه اذا كان التغيير الاجتماعى يتطلب بالضرورة أن « **تتغير** » البيروقراطية ؛ فكيف تكون هذه البيروقراطية نفسها وسيلة أساسية لاحداث التغيير ؟ ! ... واذا كنا نستخدم عبارة « تغيير » البيروقراطية ؛ .. فهل يعنى ذلك أن البيروقراطية فى حد ذاتها — كقطاع اجتماعى — لابد أن تبقى ، وانه لن يلحقها سوى تغيير المفهوم ؟

هذه كلها أسئلة تثيرها المقدمة لدى القارىء الذى تعود أن يقرأ أو يسمع كل يوم شعار **القضاء** على البيروقراطية .. وهى أسئلة تجد اجابتها ولا شك فى فصول الكتاب الذى يعتبر بحق أوفى ما أصدرته المكتبة العربية فى هذا الموضوع الحيوى بالنسبة لمجتمعنا الثورى الذى تحقق وجوده فى أعقاب ثورة ٢٣ يوليو الخالدة ..

ولابد لنا ونحن نعرض لهذا الكتاب من أن ننقل بالنص جزءا من الباب الأول أراه ضروريا لفهم موضوع الكتاب والهدف منه .. حيث يقول المؤلف : —

« تقوم هذه الدراسة على افتراض ان التغيير الاجتماعى المتطرف يستدعى تغييرا متطرفا فى البيروقراطية ، وفى نفس الوقت تعتبر البيروقراطية وسيلة أساسية لاحداث التغيير .. ويأخذ تحليلنا لهذا الموضوع الفروض الآتية فى الاعتبار : —

١ — كان يوجد فى مصر — كما هى الحال فى سائر المجتمعات — فئتان من الناس ، فئة حاكمة وفئة محكومة . وتتركز ادارة شئون الدولة العامة فى يد الفئة الأولى التى تتكون فى العادة من عدد محدود من المشرعين والقادة السياسيين والاداريين تتجمع السلطة فى أيديهم ، وتقوم هذه الفئة بتحديد أهداف المجتمع . وتعتمد فى سبيل تحقيق الأهداف وتنفيذ سياستها على الجهاز البيروقراطى ... **أى ان البيروقراطية الحكومية تصبح أداة رئيسية لتحقيق الأهداف التى تسعى اليها الفئة الحاكمة .**

٢ — ان التغيير الثورى الذى يتناول الجماعة الحاكمة يتبعه حتما تغيير جذرى فى أهداف المجتمع ؛ وهذا يستتبع بالتالى اجراء تغييرات فى الجهاز البيروقراطى ويستدعى من جانب القادة الجدد محاولة للقضاء على الجهاز الحكومى القديم واقامة جهاز جديد بدلا منه .

٣ — ان التغيير الشامل للبيروقراطية الحكومية الذى يتبع التغيير الثورى يعد مستحيلا من الناحية العملية ؛ لانه سيؤدى بالضرورة الى تعطيل سير الخدمات العامة الحيوية بالمجتمع ولذلك فان التغييرات التى تلحق البيروقراطية تهدف أساسا الى السيطرة على المراكز الهامة بها وعلى الوظائف التى تتصف بالصبغة السياسية والتى لها طبيعة الرقابة .. **وهذا يؤدى حتما الى زيادة مركزية السلطة البيروقراطية .**

٤ — طالما ان التغيير المتطرف بالجهاز البيروقراطى يقتصر عادة على المراكز الهامة ولا ينصرف الى التأثير الفعال فى القيم البيروقراطية أو الى صميم تكوينها فانه بذلك يصبح تغييرا سطحيا .. **ومن ثم فان محاولة توفير بيروقراطية على درجة عالية من الكفاية والصلاحية سيكون عملا محدود الأثر .**

من واقع السطور القليلة الأخيرة ؛ نستطيع ان نفهم أن البيروقراطية بمفهومها الأكاديمى ربما تختلف كثيرا عن مفهومها التقليدى العادى الذى يعنى الأمراض والعلل والتعقيد وعدم الكفاية والنزعة الى السيطرة والتزام حرفية القوانين والتعليمات التى يتصف بها الجهاز الادارى المكتبى .. ونستطيع أن نفهم أن البيروقراطية تعنى على وجه العموم « العمل الحكومى الوظيفى » .. وتعنى أيضا التنظيم أو الجهاز الحكومى الذى يوجد فى المجتمع السياسى المتحضر لتحقيق الأهداف القومية ولاخراج السياسة العامة الى حيز الواقع بوضعها موضع التنفيذ .. « والبيروقراطيون »

اذن هم الذين يختارون لشغل مناصب هـــذا الجهـــاز . ومن ثم فيمكن أن تكون هنـــاك « بيروقراطية » رشيدة (اذا كان المجتمع نفسه رشيدا) ؛ وبيروقراطية فاسدة (اذا كان المجتمع فاسدا) . وبمعنى آخر **يمكن أن يكون هنـــاك نظام ادارى حكومى يعادى فى مجموعه جمـاهير الشعب عندما ينفذ رغبات حكام يعادون الشعب ؛ .. وأن يكون هناك نظام ادارى حكومى يعمل فى خدمة هذه الجماهير اذا كان الحكام أنفســـهم يعمـــلون من أجلها . ولن تكون اذن لفظـــة « بيروقراطية » فى حـــد ذاتها لفظـــة بغيضة مكروهة .**

يتألف الكتاب من خمسة أبواب .. ويضم كل باب منها فصلا أو اكثر :

تحت عنوان

الباب الأول	« لماذا البيروقراطية ؟
والباب الثانى	« أبعاد المشكلة ..
والباب الثالث	« الثورة المصرية
والباب الرابع	« التغيير البيروقراطى
والباب الخامس والأخير	« البيروقراطية والتطبيق الاشتراكى .

وفى الباب الأول يهتم المؤلف بأن يحدد نطاق دراسته فيشير الى ضرورة دراســـة التغيير الاجتمـــاعى الذى يؤثر بالضرورة على طبيعة البيروقراطية باعتبـــار ان جذور الحكومة كهيئة ونظـــام « مدفونة فى طبقـــات من التدرج التاريخى » .. والى أنه سيكتفى بالبدء فى هـــذه الدراسة مع بداية أسرة محمـــد على التى كانت تمثل حكم أسرة واحدة كان قائما قبل الثـــورة مباشرة ، ولأن النظام السياسى والاجتماعى قبل الثورة أخذ سماته ومميزاته خلال تلك الحقبة ؛ ولأن النظام الذى كان قائما خلالها هو الذى قامت الثورة للقضاء عليه .. وقضت فعلا على معظم معالمه ومقوماته وغيرت ما بقى منها . كل هـــذا بالطبع على أساس أن « البيروقراطية » تصـــبح دائما مرآة لطبيعة النظام السياسى والاجتماعى فى مجتمع بالذات ..

كذلك فان المؤلف يهتم فى هذا الباب بايراد أهم التعاريف للفظة « بيروقراطية » .. ونستطيع أن ندرك ان المؤلف يميل الى الأخـــذ بتعريف « ماكس ويبـــر » Max Weber المؤسس على دراســـة الأنظمة البيروقراطية فى الحضـــارات القديمة (مصر ، الصين ، الهند ، روما) ... والذى يقدم أيضا على أساس الاهتمام الشـــديد بالتنظيم الرسمى بصرف النظر عن الجانب غير الرسمى فيه وعن السمات والاعتبارات الانسانية والقيم المتـــداخلة فى الموقف .. والنمـــوذج البيروقراطى فى نظر « ماكس ويبر » هو :

١ ــ تنظيم مســـتمر للوظائف التى تحكمها القواعد .

٢ ــ نطاق اختصاص معين لكل مكتب .

٣ ــ تنظيم المكاتب قائم على أساس التدرج الهرمى .

٤ ــ القواعد التى تحكم سلوك الكاتب هى قواعد وانماط فنية .

٥ ــ فصل الادارة عن الملكية .. فالعاملون فى التنظيم البيروقراطى لا يمتلكون وسائل العمل والانتاج وانما يمدون بها فى شكل نقود وأدوات وهم مســـئولون عن تعليل كيفية انفـــاقها او استخدامها .

٦ ــ لا يوجـــد أى حق فى تملك المنصب الرسمى .. وتولى الوظـــائف ليس وراثيـــا او انتخابيا .

٧ ــ جميع الاجراءات الادارية والقـــرارات والقواعد توضع وتثبت كتابة ..

٨ ــ السلطة القانونية يمكن ممارستها بطرق مختلفة .

وبعد تمهيد اشـــار فيه المؤلف الى منهج البحث وميـــدانه ؛ .. يجىء الباب الثانى من الكتاب تحت عنوان « أبعاد المشكلة » فيبدأ بأن يورد العلاقة بين العوامل الايكولوجية وبين التنظيم البيروقراطى ، باعتبـــار أن كـــل ســـلوك ادارى انما هو نتاج طبيعى لتفاعل القيم وانماط السلوك بالمجتمع كله وبالحكومة التى هو جـــزء منهـــا ..

فللعامل الجغرافي مثلا تأثيره في طبيعة التنظيم البيروقراطي .. فان طبيعة مصر الجغرافية الزراعية (رقعة زراعية محدودة تعتمد مباشرة على النيل) . وان الرغبة في تنظيم مياه النيل والسيطرة على الفيضان والاستفادة من المياه وتنسيق استخدامها ؛ .. كل هذا قد حتم ضرورة اقامة جهاز حكومي مركزي يضم عددا من الموظفين والعمال تتجمع في أيديهم مسئوليات التحكم في المياه .. وقد ترتب على هذا أن انتقلت القوى السياسية الى أيدي هؤلاء الذين بسطوا نفوذهم على نظام الري والزراعة فمارسوا سلطات واسعة .. وهكذا فان العوامل الجغرافية اثرت في شكل الحكومة وطبيعة الادارة العامة في مصر من عدة نواح اجتماعية واقتصادية وسياسية .

واذا نحن استعرضنا **طبيعة المجتمع المصري قبل الثورة** لادركنا ان هذا المجتمع كان له تأثيره المباشر في تشكيل البيروقراطية (الجهاز الحكومي الاداري) الأمر الذي يؤكد أن البيروقراطية في مجتمع انما هي نتاج مباشر لنوع هذا المجتمع .

● ان الاحصائيات تشير الى أن أكثر من ٦٥٪ من سكان مصر كانوا يعيشون قبل الثورة على الزراعة وهذا يعني ان المجتمع المصري ينتمي الى « النمط الزراعي » الذي يتميز فيه المجتمع عادة بالتماسك والقوة الاجتماعية .. وحيث نظم الحكم تقوم عادة على أسس دينية أو وراثية وحيث الأرض تصبح رمزا الثراء والموظفون من اقوى الطوائف الاجتماعية وهم يرون ان سلطتهم نابعة من اصل ملكي ويتعالون على الجمهور ويشعرون باختلافهم عنه .. وهذا على عكس النمط الصناعي حيث تبدو القوة في المجتمع مستمدة من الجماهير والموظف يدرك انه خادم عام ويتميز سلوكه بالديموقراطية واحترام الغير .

● كذلك فان مستوى المعيشة في مصر قبل الثورة كان ذا تأثير مباشر على البيروقراطية فالبيروقراطيون أساسا يخدمون الدولة .. وحين تكون « الدولة » مركزة في أيدي نسبة ضئيلة من المواطنين في مجتمع تبدو فيه فوارق مذهلة في مستويات الدخول ؛ .. يصبح هؤلاء البيروقراطيون (اى بمعنى آخر يصبح الجهاز الاداري) في الواقع خدما لهذه النسبة الضئيلة من المواطنين .

● وللأسرة ايضا تأثيرها المباشر على البيروقراطية ؛ .. فالأسرة تلعب دورها المؤثر على حياة الفرد .. تؤثر على نوع المهنة التي يتطلع اليها .. وعلى مركزه بالمجتمع .. وعلى طريقة اختياره لزوجته ونوع تعليمه .. وهذه كلها – في المجتمع المصري الذي توجهه التقاليد – أمور تتقرر بمدى الثروة والجاه والسلطة التي تتمتع بها الأسرة . ومن ثم فانه ليس من المستغرب ان نرى الجهاز البيروقراطي يشبه الى حد بعيد التنظيم الأسري او القبلي او البناء الاجتماعي كله .. فغالبا ما نلاحظ في هذا الجهاز انواعا من السلوك أشبه ما تكون بالطقوس المتوارثة ، ونلاحظ ايضا وجود نمط منسق للاتصالات يهتم كثيرا بالمظاهر والشكليات وقبول وجهات نظر الرؤساء وعدم معارضتهم بصرف النظر عما اذا كان المرءوس مقتنعا تماما أو غير مقتنع ، ذلك (**لأن المصريين تعودوا على هذا النوع من الحياة الذي تمارس فيه السلطة بطريقة أوتوقراطية تعسفية ، سواء كانت سلطة رب الأسرة أو مالك الأرض أو سلطة الموظف الحكومي .. ولكثرة ما قاسوه على يد الحكومات السابقة فقد تعودوا أن يسيئوا الظن بها .. ولكنهم عادة كانوا يفوضون الأمر لله كلما خامرهم الشعور بالظلم مخافة بطشها وتعسفها**) .

● كما أن للتدرج الهرمي للبناء الاجتماعي تأثيره البالغ على البيروقراطية في مجتمع طبقي ان اتصف بشيء من المرونة الاجتماعية وعدم وجود فواصل طبقية منيعة ، الا أن الخطوط الفاصلة بين الطبقات كان من الممكن أن تميز بسهولة : طبقة الأثرياء من الاقطاعيين والطبقة المتوسطة التي قوامها موظفو الدولة والأطباء والمحامون والمهندسون والضباط والمثقفون والتجار .. وطبقة الفقراء من العمال والفلاحين .. ولقد كان البيروقراطيون بالضرورة أسخياء في تعاملهم مع ذوي السلطان والجاه وافراد الطبقة المحظوظة

بينما يتعنتون ويتعسفون ويستبدون بالطبقة الفقيرة من العمال والفلاحين .

والى جانب الاعتبارات الجغرافية .. واعتبارات أوضاع المجتمع المصرى قبل الثورة فهناك أيضا **الاعتبارات الديموقراطية** المؤثرة على طبيعة البيروقراطية وشكل الجهاز الادارى الوظيفى فى مصر .

● فالجنس مثلا (عالم الرجال والنساء) له أثره فى هذا الصدد حيث يصبح للمجتمع المصرى (وهو مجتمع ريفى زراعى فى مجموعه) أثره فى توجيه سلوك الأفراد الأمر الذى ينسحب تأثيره على حياته العامة .. سياسية كانت او اقتصادية أو اجتماعية .

● كذلك فان للدين أثره فى تشكيل الصورة البيروقراطية .. وفى مجتمع نجد فيه الحياة الاجتماعية مرتبطة الى حد كبير بالاعتبارات الدينية . وحيث يؤدى (عدم فهم البعض مقاصد بعض التعاليم الدينية فهما صحيحا من ناحية ، وترتيب معظم أوجه نشاطهم فى الحياة العملية على أساس الفهم الخاطىء من ناحية أخرى) قد أدى أحيانا الى أنواع من الرضا بالقضاء والقدر والتواؤم مع ظروف الحياة وقبولها دون محاولة تشكيلها أو تطويعها لارادة الانسان .. واصبحت بعض العبارات التى لها صبغة دينية مثل « قضاء ومكتوب علينا » و « هذه ارادة ربنا » تعبر عن الاتجاهات التقليدية لدى بعض الأفراد نحو عدم محاولة التغلب على الصعاب والمشاكل والعزوف عن تطويع الأمور لارادتهم) .. هذه الاعتبارات وغيرها لها أثرها الملموس فى الادارة العامة بمصر .. (وليس بغريب أن نجد الحكومة تتوسل عن طريق الاقناع الدينى الى دعوة الجمهور لحل بعض مشاكله الهامة كتنظيم النسل أو قبول وفهم النظم الجديدة كالاشتراكية والقيادة الجماعية مثلا) .

● واذا نحن أشرنا الى التعليم ؛ .. فسوف نجد بصماته مطبوعة على الجهاز البيروقراطى للدولة .. فان هرم التعليم فى مصر قبل الثورة كان يمثل الى حد بعيد التدرج الاجتماعى والاقتصادى القائم .. وقد انعكس هذا الوضع تلقائيا وبوضوح فى الوظائف الحكومية .. ويبدو أثر هذه الاعتبارات فى الجهاز الحكومى ؛ فلم يشعر الموظفون بكيانهم كطبقة وظيفية واجتماعية فحسب ؛ وانما تملكتهم مختلف مشاعر التفوق والسيادة على زملائهم المواطنين مما بدا واضحا فى الطريقة التى كانوا يعاملون بها العمال والفلاحين .

الخلاصة اذن .. **أن الموظف من صنع مجتمعه ويتأثر به .. ولكنه أيضا يساهم بدور كبير فى تطوير المجتمع وتغييره .**

واذا نحن تركنا العوامل الايكولوجية وتأثيرها فى الإدارة العامة بمصر ؛ . وانتقلنا الى طبيعة العلاقة بين السياسة والادارة .. (اى بين السياسة والقطاع البيروقراطى) .. لوجدنا ان هذه العلاقة قوية وواضحة منذ بداية حكم اسرة محمد على مرورا بفترة الاحتلال البريطانى ثم بفترة الاستقلال الدستورى السابقة على الثورة ، حيث كانت كل القوانين فى خدمة الطبقة الحاكمة .. ومن ثم كان البيروقراطيون بالتالى فى خدمة هذه الطبقة .. وحيث تفشت الرشوة وتفشى الفساد .. وحيث كان للصراع السياسى اثره فى الجهاز الحكومى وفى مستوى كفايته والروح المعنوية بين أفراده ودرجة ولائهم ومدى انتاجهم .. كذلك لا يجب أن ننسى أن سياسة الأحزاب استدعت فى كثير من الأحوال تغييرات فى الوظائف الرئيسية بالتنظيم الحكومى .. وبالتالى كان هناك دائما فريق من الموظفين على استعداد للخروج وفريق آخر يترقب دخول المكاتب الحكومية مع كل تغيير وزارى ..

واذا نحن تتبعنا البيروقراطية قبل الثورة لاستطعنا أن نتعرف على بعض ملامحها الهامة التى تتلخص فيما يلى : ــ

(أ) المركزية .. حيث تجمعت فى العاصمة كل خيوط السلطة ووجد العاملون بالميدان أنفسهم مضطرين للرجوع الى رياستهم المركزية فى جميع الأمور .. وحيث تفنن الموظفون بالمستويات الادارية المختلفة فى تصميم عديد من التعليمات المسهبة التى تهدف فى النهاية الى اقامة صرح منيع من النظام المركزى .

(ب) **التعقيـــد** .. حيث اتصفت الادارة الحكومية بالتعقيد والتخلف والتقيد الشديد بحرفية التعليمات .. وحيث نسى الرؤساء عناصر الاقتصاد والكفاية .. وحيث صارت بعض الشعارات الداعية الى الدعة والمسالمة تتردد كثيرا فى أوساط الموظفين ويرضى بها الرأى العام .. وأصبحت احد معايير التقدم الوظيفى والترقية فى بعض الأحيان .. وكانت مدة الخدمة فى ذاتها فى مقدمة هذه المعايير .

(ج) **الروتينية** .. حيث عزف الموظفون عن الالتجاء الى حسن التصرف أو الحيدة عن التقاليد الوظيفية المتبعة .. وحيث انعدمت روح النضال والمنافسة .

(د) **المحسوبية** .. حيث اصبح تعيين الاقارب والمحاسيب اقرب الى الأصول الوظيفية المتبعة .. حتى يقول سعد زغلول باشا نفسه : —

« انى لآسف كل الأسف لأن أقاربى غير اكفاء .. والا لكنت عينت منهم فى كل مكان .. ولكان عندنا حينئذ ادارة زغلولية بكل معنى الكلمة .. اسما ومعنى ودما !! » .

هكذا كان حال البيروقراطية قبل الثورة .. ثم تجىء الثورة ؛ ويعقد المؤلف الباب الثالث من كتابه للحديث عن ثلاث مراحل حيوية بالنسبة لموضوع دراسته تمثل فى حد ذاتها طبيعة التطور فى مواجهة الجهاز الحكومى .. أى فى مواجهة البيروقراطية ..

● المرحلة الأولى هى مرحلة الثورة ذاتها حيث قام الجيش باعتباره قطاعا ممثلا للشعب بانطلاقته ليقيم من أجل هذا الشعب حياة جديدة ، حدد معالمها فى ستة اهداف : —

القضاء على الاستعمار واعوانه .

القضاء على الاقطاع .

القضاء على الاحتكار وسيطرة راس المال على الحكم .

اقامة عدالة اجتماعية .

اقامة جيش وطنى قوى .

اقامة حياة ديموقراطية سليمة .

ولم يكن هدف الثورة مجرد تغيير نظام حكومى قديم .. ولكنه كان أساسا القضاء كلية على البناء الاجتماعى .. وفى هذه المرحلة الأولى .. ارهاصات الثورة ؛ فالثورة .. بدا واضحا مع أيام الثورة الأولى أن قائدها جمال عبد الناصر كان صريحا فى أن الجيش لم يقم بمجرد انقلاب كما كان البعض يريدون .. وانما قام بثورة لابد أن يكون بعدها ما ينبغى أن يحقق مفاهيم الثورة الحقيقية .

● .. ومن ثم كان على الثوار فى سنى الثورة الأولى أن يحملوا مسئوليتهم فى الحكم المباشر ضاربين عرض الحائط بهمسات الطبقة البيروقراطية التى تحدثت عن « الخبرة » التى كانت هى دائما حجتها فى الاحتفاظ بمناصب الحكم ووظائف الحكومة (**وبيدو مؤكدا ان احدى المزايا العظيمة التى استمتع بها الثوار هى انهم كانت تنقصهم الخبرة وكانوا يجهلون ادارة شئون الحكم بالطريقة التى تعارفت عليها الحكومات السابقة وخبرتها .. وانهم تخلصوا بالفعل من الطبقة الفاسدة التى أدت مثل هذه الخبرة**) ..

وهكذا بدا مجلس **قيادة الثورة** يمارس سلطات الحكم الفعلية بعيدا عن دوافع الطموح السياسى الشخصى .. حتى انه ظل مؤمنا لفترة من الزمن بامكان اصلاح السياسيين القدامى ، وبالاحتفاظ بمجرد دور (الحارس على الثورة لا اكثر ولا أقل) **وحين التقت الثورة وجها لوجه مع هؤلاء السياسيين ومصالحهم وأطماعهم ونواياهم مع الفساد وعدم الشعور بالمسئولية ، تأكد أن لاسلام بين الحاضر والماضى فلا يمكن بحال من ان يؤتمن القدامى على مقاليد الاصلاح وهم الذين أوجدوا الفساد وعاشوا فيه وضربوا بالصالح العام عرض الحائط** . ومن ثم بدأ المجلس يعمل بعيدا عن هذه الطبقة الفاسدة ، بدا بانشاء محكمة الغدر ، ومحكمة الثورة . واصبح مجلس قيادة الثورة أشبه ما يكون بمجلس تشريعى مصغر يتسم بسرعة الحركة والحسم .. ثم كانت عملية « عسكره » السلطة التنفيذية فى فجر الثورة ضرورة حتمية لتأمين الثورة ودفع كل الضغوط والمؤامرات والتحديات الداخلية

والخارجية ولضمان سرعة التنفيذ واتخاذ الاجراءات الثورية دون جدل أو تعويق .. وبمرور الزمن أخذت الثورة طريقها الى مرحلة الاتزان لتصبح نظاما للحكم راسخ الأقدام .. وبدأت المخاطر والضغوط التى جعلت مجلس قيادة الثورة يعيش فى حالة تيقظ وانتباه وتوقع وحذر .. تقل وتختفى .

وفى مدى أربع سنوات تحمل فيها مجلس قيادة الثورة مسئولية الحكم المباشر تحققت كل المبادىء الستة التى أعلنها فى اليوم الأول للثورة .. واستطاع المجلس أن يضع على رءوس الجهاز البيروقراطى ثوريين عسكريين من أهل الثقة فرضوا تنفيذ هذه الأهداف ..

● وحين تحققت أهداف الثورة الستة ؛ .. واعلن حل مجلس قيادة الثورة بدأ العمل على اقامة حكومة دستورية فى سنة ١٩٥٦ .. فى ظل دستور جديد وافق عليه الشعب فى ٢٣ يونيه سنة ١٩٥٦ بالاجماع . **ولأول مرة يهتم الدستور الجديد بواجبات ومسئوليات الموظفين العموميين .. حيث نصت المادة ٢٨ على أن الموظفين العموميين يجب أن يهدفوا فى أداء أعمالهم الى خدمة الشعب .. وأعطى المصريين حق الشكوى لسلطات الدولة فى الأحوال التى يخالف فيها الموظفون القانون أو يهملوا مسئولياتهم (المادة ٦٣)** وبدا واضحا وجه جديد للقطاع البيروقراطى .. فبينما كانت وزارات ما قبل الثورة وقفا على فئة معينة تمثل المصالح المشتركة للاقطاعيين والاستغلاليين من السياسيين القدامى ، نجد أن وزارات ما بعد الثورة تتميز بظهور عناصر جديدة تمثل صفوة الفنيين والمهنيين والمتعلمين وضباط القوات المسلحة .

ولكن .. كيف استطاعت الثورة أن تحدث « التغيير البيروقراطى » ؟ ! . كيف استطاعت أن تحدث التغيير فى القطاع الوظيفى الادارى للدولة بما يوائم احتياجات مجتمع الثورة ؟ .. هذا ما يعرضه لنا المؤلف فى الباب الرابع من الكتاب الذى يركز فيه بحثه على زاويتين : حتمية التغيير البيروقراطى ، واستراتيجية هذا التغيير .

● ان الحاجة لمواجهة مقاومة البيروقراطية التقليدية للتلاؤم والتغيير وفقا للأهداف الاجتماعية الجديدة تبدو واضحة حينما يتولى الحكم حزب أو جماعة جديدة لها أهداف تختلف اختلافا واضحا عما قبلها أو لها أهداف ثورية .. ولقد وجدت الثورة فى مصر نفسها فى موقف متشابه .. وكان لابد لها من أن تواجه حتمية تغيير القطاع البيروقراطى فى مصر .

وبالرغم من أن الثورة لم تكن راغبة فى خلق جو من الاضطراب فى ادارة أمور الدولة العامة ؛ واتجاهها نحو توسيع اختصاص الحكومة المركزية وسلطتها ؛ فان هذا لم يحل بينها وبين محاولة الاصلاح والتطور الحكومى الشامل .. أى بينها وبين محاولة اختبار القطاع البيروقراطى.. وكان الاختبار أيضا طريقة لاستكشاف ما اذا كان موظفو ما قبل الثورة الذين يمثلون الى حد لا يمكن اغفاله الحضارة الريفية والزراعية ، لديهم المهارات الفنية والعلمية الضرورية التى تحتاج اليها الثورة فى مشاريع التنمية الضخمة . أو على الأقل يستطيعون تنمية هذه المهارات نفسها .. **وكان الاختبار الذى تمر به البيروقراطية أيضا مهتما بمدى وطبيعة الحياد الوظيفى الذى يمكن أن يتحصن خلفه البيروقراطيون .** وهنا يثور التساؤل : — (هل يمكن الابقاء على حيدة الجهاز الحكومى فى مثل هذا الموقف .. ؟ **هل يستطيع الموظف العام فى ظروف الثورات الاجتماعية أن يبقى محايدا بالنسبة للمسئوليات الموكولة اليه ؟ .. أو بمعنى أوسع ! هل يستطيع الموظف العام أن يبقى محايدا فيما يتعلق بالقيم الجديدة والأهداف الثورية التى ظهرت فى المجتمع الذى يخدمه الموظف ؟**

الرد على هذا السؤال : « لا » .. ومن ثم فان محك الاختبار الذى يتعرض له الجهاز الحكومى (البيروقراطية) هو مدى تجاوبه وقبوله للتغيير الاجتماعى الشامل والقيم الجديدة التى تأتى بها الثورة التحررية .. والتى تتعارض مع القيم السابقة أو تقضى كلية عليها .

● .. على أن « **الاختبار** » وحده لا يكفى .. فقد كانت رغبة الثورة منصرفة الى أن البيروقراطية الحكومية يجب أن تهز جيدا

بالطريقة التى تجعلها جهازا خادما للشعب .. ومن ثم كانت الحاجة الى **استراتيجية** معينة لاحداث هذا الأثر المطلوب .. ولقد سلكت الثورة فى هذا السبيل مسلكا متطورا يساير تطور الثورة ذاتها .. بدأت **بالرقابة العسكرية على الجهاز الحكومى** .. ثم انشأت **لجان التطهير لتبصيد** القيادات الموجودة فى قمة الهرم التنفيذى بمختلف الوزارات والهيئات الحكومية .. ثم أخذت تجرى عملية **اختيار لقيادات جديدة** مع اعادة بناء القوى المعنوية لدى الموظفين وتعبئة مختلف امكانياتهم وتشجيعهم على الابتكار والخلق والتجديد .. الى جانب مجموعة هادفة من برامج التدريب لزيادة القدرات لدى الأفراد وبالتالى زيادة الانتاج وتحسين الخدمات .. ثم عملت جادة على انشاء مجموعة من **الأجهزة الثورية** المستقلة تماما عن المنظمات القائمة أو التى تقوم الى جوارها أو متصلة بها مثلما حدث مثلا بالنسبة لوزارة السد العالى وهيئة قناة السويس وغيرها .. وكان لابد أيضا من سلوك أسلوب فى **الترشيد البيروقراطى** فى صورة أجهزة للخدمات لها سلطة اتخاذ القرارات وتنفيذها مثل « المجلس الدائم للخدمات » و « المجلس الأعلى للتخطيط والتنسيق » و « لجنة التخطيط القومية » لدراسة مشروعات التنمية مستقلة عن الوزارات المسئولة عن التنفيذ (التى تحولت فى سنة ١٩٦١ الى أول وزارة للتخطيط عرفتها الدولة) و «لجنة الخطة » و «ديوان الموظفين» (الذى ألغى قانونه السابق واستعيض عنه بقانون ١٥٨ لعام ١٩٥٢) الذى عمل على أساس مركزى فيما يتعلق بنشاطه فى نواحى التشريع والاختيار وترتيب الوظائف و « الجهاز المركزى للتنظيم والادارة » الذى يشرف على عمليات الاشراف الفعلى على عمليات الادارة والتنظيم بالقطاع العام .. هذا الى جانب الاهتمام **بالتدريب والتعليم** حيث العلاقة وثيقة بين سياسة التعليم ونظمه فى بلد معين وبين طبيعة عمل الجهاز الحكومى به ومستواه ومن ثم بدأت سياسة التوسع فى التعليم الفنى والمهنى على اساس الوفاء باحتياجات القطاع الحكومى والقطاع الخاص ومقابلة الاحتياجات الاقليمية بالأعداد المناسبة من المتعلمين .. مع توجيه التعليم الجامعى بالذات الى الاسهام فى التنمية الاقتصادية وفى اعداد القوى البشرية المطلوبة فى مجال هذه التنمية .. مع انشاء معاهد « الادارة العامة » و « المعهد القومى للادارة العليا » و « معهد التخطيط القومى » وكلها تهدف الى تدريب الموظفين من الوزارات والهيئات والمؤسسات العامة والخاصة المتصلين بتخطيط عمليات التنمية .. وللدور الذى يؤديه فى نشر الوعى التخطيطى بين العاملين بالحكومة والقطاع العام .

ولقد كانت عملية التغيير البيروقراطى هذه ضرورة حتمية لمواجهة مرحلة التطبيق الاشتراكى التى اصبحنا نعيشها مع انطلاقنا لتحقيق المجتمع الاشتراكى ..

ولقد أفرد المؤلف الباب الأخير من كتابه ليتحدث عن « البيروقراطية والتطبيق الاشتراكى » من زوايا ثلاثة للبحث : —

● **فنحن منذ بداية الثورة .. نصر على تغيير وجه المجتمع .. ونحن مع كل خطوة جديدة على الطريق .. نواجه « تحديات مجتمع متغير »** .. نواجه **التخلف الحضارى** الذى تعانى منه البيروقراطية حيث تتضح الهوة السحيقة بين التقدم المادى الذى حققه الجهاز الحكومى ؛ وبين الأفكار والقيم والعادات والتقاليد التى تتحكم فى سلوك العاملين به .. ونواجه **تضخم الجهاز الحكومى** منذ صدور قوانين يوليو الاشتراكية الأمر الذى يؤدى بالضرورة الى تعدد التشريعات والى عموميتها والى زيادة الحاجة والرغبة فى السيطرة على الجهاز الحكومى واعادة تنظيمه واحكام الرقابة عليه (والميل لالتزام التعليمات والروتين والتمسك بالاتصالات المكتبية بما يؤدى فى النهاية الى المركزية والتعقيد) فى الوقت الذى لم تساير فيه التشريعات روح التطور الحادث .. **كذلك فنحن نواجه مشكلة الأهداف المتحركة التى تتغير كل يوم بتغير الحاجة الأمر الذى يتطلب من الجهاز الحكومى أن يكون مستعدا للحاق بها**

دون **التوقف أو الجمود** .. ونواجه **ثورة من الأماني والتوقعات** الشعبية ؛ حيث يتطلع كل مواطن الى مزيد من فرص العيش الطيب .. وعلى قدر كفاءة الجهاز الحكومي .. تكون ثقة المواطن بالجهاز الحكومي .. وبالنظام كله ... ونواجه أيضا **حاجة ملحة الى الفنيين** والى **احتياجات التصنيع** التى تترتب عليها أكثر من مشكلة ثقافية وصحية واجتماعية واسكانية ... الخ .

ونواجه شهية زائدة للتنمية من مواطنين استبد بهم حرمان الماضي ، وانفجارا سكانيا يهدد بان تصبح معظم انجازات الحكومة عملا يدور فى حلقة مفرغة أمام الأفواه الجديدة المتطلعة الى الغذاء .. ، ونموا حضاريا سريعا يزيد الضغط على أجهزة الخدمات .. ويعرض (البيروقراطية) القائمة على هذه الأجهزة للنقد من المواطنين اذا لم تف باحتياجاتهم وتطلعاتهم المشروعة .. هذا الى جانب تحديات أخرى كثيرة يجد الجهاز الحكومي نفسه هو العامل الأول فى احداث التغيير أو مواجهته نتيجة للضغط الداخلى الذى يفرضه التنظيم نفسه ، وبفعل الضغط الخارجى الذى تفرضه الجماهير وتفرضه الأحداث والتطورات الدولية .

● فى مواجهة هذه التحديات كلها لابد أن يكون هناك « تخطيط » . **وحين يقول جمال عبد الناصر ان « الثورة هى علم تغيير المجتمع » ؛ فان هذا يعنى بالضرورة أن يكون هناك تخطيط لاحداث هذا التغيير .. تخطيط اقتصادى** يتطلب أن يكون القطاع البيروقراطى قادرا على تحقيقه ، **وتخطيط اجتماعى** يتطلب أجهزة حساسة واعية لظروف وأحوال التغيير الاجتماعى الحادث واتجاهه وسرعته وملما بالتجارب المماثلة وما صادفها من نجاح أو أخفاق وسريعا الى ملافاة الخطأ .. ويعنى بالضرورة ايضا أن تكون هناك **مركزية فى التخطيط ولا مركزية فى التنفيذ** تحدد بالتالى مدى مسئولية الأجهزة الادارية .. وكل هذا يدعو الى ضرورة اعداد خطة ادارية شاملة متمشية مع خطة التنمية ومع نتائجها المتوقعة **على أن تكون الخطة الادارية ذات برامج متنوعة تسمح بتغطية جميع أبعاد المشكلة الادارية والتحرك فى كل الاتجاهات لملاقاتها ..**

واخيرا فانه تبدو فى صدد العلاقة بين البيروقراطية وبين التطبيق الاشتراكى ، أهمية **دور القيادة الادارية** فى مرحلة تتطلب جيلا من القادة المنطلقين الذين يعملون فى داب لتطوير الادارة واجعل غدها أفضل من يومها ، والمعبئين باليقين فى جدوى ما يفعلون والمستعدين لمواجهة المشاكل وحلها لا التهرب منها ، وتتطلب ايضا تنقية جو السياسة والادارة من العناصر الرجعية والاستغلالية وتمكين العناصر القومية والثورية من تولى المناصب القيادية فى المجالين السياسى والادارى ، وتتطلب ايضا تحولا نحو **القيادة التكنوقراطية** التى تعتمد على أصحاب الكفايات الفنية (وهذا ما نلاحظه بالفعل فى مستويات القيادات الوظيفية العليا حيث تغلب نسبة الحاصلين على درجات علمية فى الهندسة والاقتصاد) .

هذا عرض ارجو أن يكون وافيا ــ بقدر ما سمحت به الصفحات المتاحة ــ لكتاب قيم .. ينبغى ان يقراه كل قائد وظيفى ادارى .. حتى يستطيع بحق أن يعى حقيقة دوره فى مرحلة الانطلاق العظيم الذى تمر به بلادنا وهى تبنى مجتمعا اشتراكيا يوفر الكفاية والعدل للمواطن العربى فى الجمهورية العربية المتحدة ... وحتى يتعرف على حدود مسئولية « البيروقراطية » فى هذا المجتمع الاشتراكى النابض بالحياة والتغيير الدائب المتصل .

سعد زغلول نصار

إفـريقيـا ... إفـريقيـا ...

قـارة تقف على قدميـها



تأليف : درك كارتت

ترجمة : أحمد فؤاد بليغ

مراجعة : حسن لطفى الخولى

الناشر

مشروع الألف كتاب ، بالاشتراك

مع مؤسسة سجل العرب

١٧٩ ص ١٧×٢٤ - الثمن ١٦ ق

● تجرى الآن فى أفريقيا معركة من أهم معارك العصر الذى نعيش فيه ، وهى معركة معقدة لأن المتصارعين فيها ليسوا جانبين فقط ، ولكنهم ثلاثة جوانب . فتعد الشعوب الأفريقية التى صممت على التحرر جانبا ، وتعتبر الدول الاستعمارية التى تتزعمها بريطانيا وتحاول قدر طاقتها الاحتفاظ بما فى يدها جانبا ثانيا ، وتعد الولايات المتحدة الأمريكية التى تمهد الأمر لتخرج فائزة من هذا الصراع جانبا ثالثا .

● يستحيل الحديث عن أفريقيا دون الحديث عن الرق . كان الرق حقيقة سائدة فى أفريقيا .. فلقد قبض على عشرات الملايين وقيدوا وبيعوا للرجل الأبيض ، فأصبحوا رقيقا .

● عندما نقول ان أفريقيا مربحة للذين يستغلونها ، نقصد هؤلاء الذين يقومون بالأعمال المشينة التى تمكن ذلك الاستغلال من الاستمرار .

● ان الرضيع الأفريقى لا بد وأن يجد غذاء مناسبا حتى ولو على حساب الأم . ولكن عندما يبدأ فى الاعتماد على مصادر الطعام فى بلده ، وعندما يصبح فردا مستقلا من أفراد الشعب ، يصبح ضحية من ضحايا الاستعمار . وهذا لا يحدث تدريجيا وجزئيا بل فجأة وبشكل مفجع .

● ان الجوع فى أفريقيا نتيجة مباشرة للاستغلال الاستعمارى ، وبدون ذلك الاستغلال تستطيع أفريقيا أن توفر لأبنائها وبناتها غذاء صحيا مناسبا .

● لا يمكن ان نتوقع من اى نقابى افريقى يكدح فى ظل ظروف الاستقلال الاستعمارى القاسية ، لا يمكن ان نتوقع منه ان يعتقد لحظة واحدة بأن من صالحه ان يدفع اشتراكا يكتسبه بجهد ومشقة لهيئة تنحصر مهمتها الأساسية فى تجنب كل عمل نضالى وفى زيادة مشقة عمله والمحافظة على مصالح صاحب العمل .

● من المؤكد كتعاقب الليل والنهار انه ستظهر اشكال جديدة للنضال فى هذه المنطقة ، وان الشعب الأفريقى سيواصل معارضته المنظمة الحازمة لسيادة البيض .

● لقد هبت اليوم شعوب افريقيا واخذت تطالب بايقاف المساوىء الاستعمارية ، انها تكافح فى ظل ظروف صعبة وفى ظل قوى متفوقة . انهم فى حاجة الى استخدام كل صبرهم وشجاعتهم وعزمهم وحكمتهم السياسية . لكنهم لا شك سوف يحققون اهدافهم تحت قيادة البروليتاريا الأفريقية النامية .

● « ان افظع شىء ان نرث انتصارات خاطئة » لورد سالسبرى .

معذرة ان سقت هذه الهتافات او هذه الصيحات فى بداية هذا المقال فهى آخر ما علق بذهنى من قراءة كتاب نابض بهذه الروح الصادقة .. معبر عما يعتمل داخل مؤلفه من مشاعر خالصة .. مما دفع به الى أن يطلق على كتابه هذا العنوان « أفريقيا .. أفريقيا قارة تقف على قدميها » ، ومما دفع بى بعدئذ الى محاولة التعرف بهذا الكاتب ، من يكون ؟ وهل مازال يتنفس هواء دنيانا ام كتمت انفاسه قبل ان تحل ساعته ؟ واين يقيم فى الأرض ان كان مازال فوق ظهرها ؟ ... ظننته شابا يمتلىء حمية وحماسة ، وظننته من بنى جلدتنا التى شاءت ارادة الله لها الا تكون على غير ما يألف اخواننا البيض ، ثم تمنيت له أن يكون بيننا فى افريقيا او آسيا — لا لتعصب ملأ النفس فيشحنها بمشاعر الأنانية والغل — وانما رغبة فى ضمان حياته وصوته بعيدا عن اخطار الضغوط او التهديدات . وهأنذا اعثر على شخص درك كارتن .. فأجده انجليزيا خالصا ، لا هو بالشيخ فى وقاره الفكرى ، ولا هو بالشاب فى اندفاعه العقيدى .. وانما هو بينهما فى حيدة واعية ، فقد يتحفظ فى حكمه على أمر ما ، اذا ما اعتقد ان فى السكوت أو فى الهدهدة امل فى خير .. كما فعل فى كلامه عن مشكلة كينيا قبل تحررها ، وقد يصيح هاتفا بالحقيقة وبما يجب ان يكون ، اذا ما تأكد لديه أن لا فائدة ترجى من السكوت .. كما فعل خلال كلامه عن بتشوانالاند وما جره التعصب العنصرى من بلاء على زعيم اكبر قبائلها لما تزوج من فتاة بيضاء .

ومؤلف هذا الكتاب أو كاتب تلك المقالات الصحفية المجموعة .. مخلص لا شك .. مخلص لفكرته — الا وهى تحرر مستعمرات بريطانيا فى افريقيا — وينبض كل سطر من هذا الكتاب بهذه الحماسة الفياضة التى تنم عن اخلاص حق ؛ وهو ايضا مخلص لوطنه وارومته .. فهو يعتقد ان الخير كل الخير فى أن يترك المستعمر ما استعمره ، لأنه نجح فى تحقيق النفع لنفسه فقط ، وان كان هناك بعض الخير قد عاد على احد أفريقى .. فعلى طغمة من المثقفين تشربوا حضارة وافدة مصحوبة بالمصلحة والجاه ، انستهم المنبت والأصل فغرقوا فى خدمة الاستعمار واهدافه .. دون أن يدروا ، أو حتى ان دروا فلديهم من المبررات ما يكفى لطمس الانحراف .

والسيد درك كارتن مخلص عاقل .. فهو قد ادرك ان **من الأفضل لوطنه أن يخرج من المستعمرات كصديق قبل أن يطرد منها كعدو ، وأن من الأجدى أن يشاركها غلاتها على قدم المساواة بالرضا والوضوح قبل أن تفيق على هذا الامتصاص والنهب المستور .. فتطيح بكل ما لوطنه من محاسن ومساوىء ، وتقضى على كل أمل فى ود أو ارتباط .**

« هذه هى النظرة البعيدة ، النظرة الوحيدة التى تحقق مصالح بريطانيا وافريقيا » . وهذا الرأى مستقيم مع اساس فكره تماما .. ونحن لا نريد منه أن يتخلى عن وطنيته ، وانما نريد أن تكون هذه الصداقة نابعة من الفهم السليم لموقف الطرفين ، والاحترام المتبادل لاستقلال كل من هذه الدول .. لا ان يفهمها المؤلف على انها

ضرورة تحتمها سياسة ملء الفراغات « وسوف يكون الدفاع عن هـذه العلاقات الودية عاملا فى حماية اصحابها من خطر السيطرة الاستعمارية الأمريكيـة .. » ؛ ان المؤلف يعتنق العقيـدة الاشتراكية فى اطار حزب العمال البريطانى ، بل انه يجنح الى الجناح اليسارى لهذا الحزب .. فينتقد مواقف حزب العمال وهو فى الحكم تجاه المستعمرات ، ويطالبه بضرورة منحها استقلالها للابقاء على علاقات الود معها .. **لكن مفهومه عن علاقات الود هذه لا تنتمى الى عقيدته الاشتراكية أبدا ، وانما تخضع لمحصلته عن العلاقات الدولية القائمة على حرب خفية حول الدول الناميـة كمناطق نفوذ .. لا بين المعسكرين الكبيرين فقط بل بين دول كل من هذين المعسكرين أيضا .**

ومن هنا نستطيع ان نقول ان هذه النداءات النابعة من قلب درك كارتن كانت تعوزها لحظة التأمل المتمهل حتى ولو انقلبت الصرخات الى تنهدات متأنية .. على أساس انه صـادق فى اشتراكيته ، مخلص لمبادئهـا .. فيسعى الى سيادتها وانتشارها .. فتصبح هـذه العلاقات روابط تكامل وتكافؤ ومساواة .

ومن هنا نستطيع ان نقول **ان هذه البحوث لم تلتزم من المنهـج العلمى الا بالسرد التاريخى السريع غيـر الشـامل ، مما أدى بالمؤلف الى التساؤل فى الباب الأخير من الكتاب ((هل هناك طريق آخر ؟)) .. مع أن الطريق واحد لا ثانى له ، وواضح لا لبس فيه .. الا وهو التحرر الكامل .**

ان هذا الكتاب جولة تاريخيـة لاهثة .. تسيطر عليه طوال عدوه بين انحـاء مستعمرات بريطانيا الافريقية فكرة واحدة .. هى شـراء صداقة الشعوب الافريقية الصـاعدة قبل ان تخضع هذه الصفقة للسعر المتعارف عليه عالميا !! ومعنى هذا ان السوق السوداء هى المكان الطبيعى لعقد مثل هذه الاتفاقات والمساومات . فالحرية التى يراها المؤلف مناسبة للمستعمرات البريطانية فى افريقيا .. هى التى لابد وان ترتبط ارتباطا وثيقا بعجلة الاقتصاد البريطانى .. فهى أقدر — اى بريطانيا — من غيرها على الأخذ بيد هـذه الشعوب الطموحة !! وهى اكثر اخلاصا — أى بريطانيا — عن غيرها لهذه الشعوب التى عاشرتها وتآلفت معهـا !! .. ولا أدرى ما نوع هـــذه القدرة وهذا الاخلاص اللذين ظـلا مقبورين فى مناجم أفريقيا منذ أن وطئت قدم أول مستعمر بريطانى ارض هذه القارة حتى الآن !! .

اننا لو تتبعنا النشاط الاستعمارى فى أول صوره على يد البرتغاليين .. لوجدنا انهم منذ عام ١٤٨٣ ميلادية حتى يومنا هذا يعملون بقدرة واخلاص — ايضا — فى انجولا وموزمبيق وحوض نهر الكنغو من قبل ، فيأخذون بأيدى شعوبهـا ليسلمونها الى تجار الرقيق ، ثم ينقضون على كل ما تتمتع به هذه البلاد من محاصيل لينفردوا باستغلالها .. واقرب دليل على هذا ان « نسبة الأمية بين اهل انجولا بعد خمسمائة عام مـن الاستعمار بلغت اكثر من ٩٩ ٪ ، وانهم لايجدون من الحرف الا ما يتلاءم منها مع خدمة الاقتصاد البرتغالى » .. كما يذكر انتونيودى فيجيريدو فى كتابه « البرتغال وامبراطوريتها » . ولو تابعنـا الصور الاستعمارية التى عاصرته او اعقبته مثل هولندا حول رأس الرجاء الصالح فى البداية ثم فى البرتغال بلدنا ، ومثل بلجيكا وفرنسـا وانجلترا ، ومثل ألمانيا وايطاليا منذعهد غيربعيد .. لوجدنا ان فظائع مخزية قـد ارتكبوها لا لهدف الا لتحقيق ماجاءوا من أجـلـه .. الا وهـو الامتصاص الاقتصادى لموارد هذه البقاع وتفريغها فى خزائن بنوك اوروبا .. حتى ولو لم يصل الى سن الخامسة من اطفال كينيا الا ٦١ ٪ من مجموع المواليد ، ولو لم يصل من هؤلاء الى سن الخامسة عشرة غير ٥٦ ٪ .. و السبب فى هذا متروك لك أيها القارىء العزيز لتعرفه ان كان من الجوع أو من الاهمـال الصحى لدى المستعمر ، وحتى لو سقط ٥٥ ٪ من عمـال منـاجم روديسيا الجنوبية صرعى امراض الجوع فى عام ١٩٣٥ ، وحتى لو غدر المستعمر الانجليزى الداهيـة سيسل رودس بصديقه لوبنجولا ملك قبـائل المتابيلى لأن هذا من مقتضيات توسيع رقعـة الاستعمار .. وفعلا قد استطاع رودس بعـد هذا القدر ان يتغلغل فى اواسط افريقيا ، ويفصل

بين مستعمرتى البرتغال « انجولا وموزمبيق » ، وينشىء مستعمرات روديسيا الشمالية والجنوبية ونياسالاند التوابع للتاج البريطانى .

نخرج من هذه اللمحات التاريخية بأن لا أمان للاستعمار مهما تشكلت ألوانه .. بل اننا نلحظ أنه بالرغم من تنافس الأطماع الاستعمارية بين الدول المستعمرة ، استطاعت انجلترا أن تجمع علماء هذه الدول المستعمرة فى مؤتمر استمر ثلاثة شهور بدعوة من رئيس وزرائها .. لا لشىء الا للبحث فى أصلح الأساليب للابقاء على وضعها الاستعمارى جميعها فى أفريقيا .. دراسة علمية متكاملة لوضع أسس يستقر فوقها الاستعمار .. الأمر الذى خفف من حدة التنافس ، وكان من نتائجه مثلا الاتفاق بين انجلترا وفرنسا ، وكان من نتائجه ايضا العمل على عدم تمكين أية دولة افريقية من النمو او التحرر تحررا حقيقيا .. بشتى الوسائل المتطورة .

وهنا نستطيع أن نقول ان مقتضيات هذا العصر الذى نعيش فيه ، لم تعد لتسمح بالأساليب التقليدية للاستعمار ان تنجح أو تبقى .. وأصبحت دول الاستعمار تدرك تماما هذه الحقيقة .. ومن ثم اخذت على عاتقها ان تسوق مبررات جديدة لبقائها وسياساتها .. فوجدناه يسلم لبعض مستعمراته بالاستقلال وما يلبث أن يتبعه بالدمج أو الانتماء لحلقة أو رباط جديد .. قد يكون أوسع وأرحب لكنه هو ذاته الضيق الاستعمارى على المدى البعيد . حتى التنافس فيما بينها ، لم يعد متخذا الشكل الهمجى الواضح ، وانما خضع لأصول منهجية مدروسة .. حتى لا ينكشف سترها ، ويفتضح أمر سرقات النصف الثانى من القرن العشرين على المستوى العالمى . **لهذا فان التنافس لم يعد مقصورا على المحترفين القدامى ، وانما دخل فى الأمر هواة جدد ..** فنرى البرتغال بعد ان كانت تباهى المستعمرين الأخر بأن استعمارها يقوم على الدعوة الصادقة للمسيحية ، أصبحت تعتمد على نظام الامتصاص والمشاركة لمنح الافريقيين حقوق المواطنة .. والمقصود بالامتصاص هنا – من وجهة نظرهم – هو تثقيفهم دينيا .. أى ضرورة ادماجهم فى الديانة المسيحية أولا ، ثم انتقاء من يتوسمون فيه الانتماء الخالص ، ويزودونه ببعض المؤهلات الدراسية التى تسمح له بمشاركة البرتغاليين فى شغل الوظائف الحكومية بعدئذ .. اقول انهم يباهون المنافسين لهم بهذا الفضل المزعوم ، وأنهم لا يسمحون بتعصب عنصرى أن يترعرع بينهم .. ومع ذلك يتحالفون مع أبشع قلاع العنصرية فى العالم .. اقصد حكومة اتحاد جنوب أفريقيا .. عندما احسوا بدائرة التحرر قد اخذت فى الاتساع من الداخل وكادت ان تلقى بهم فى المحيط .

كذلك نجد مجموعة الدول الافريقية التى كانت تابعة لفرنسا تستقل على أساس نظام الكومنولث البريطانى .. فترتبط بفرنسا فى رابطة اقتصادية محكمة لا تسمح لها بالفكاك الا فى الحدود التى لا تهدد فيها هذه الرابطة . كذلك الحال فى المستعمرات البريطانية التى اقتصر عليها هذا الكتاب .. فقد ارتبطت معها انجلترا بالنظام الاقتصادى البريطانى المشهور باسم الكومنولث .

ثم نجد الولايات المتحدة الأمريكية التى يخشاها مؤلف الكتاب كمنافس ، نجدها تسارع الى تأييد استقلال بعض الدول التى تنتظر من تحررها افساح مكان لأقدامها كى ترسخ .. على ألا تسمح لاقتصاد ما أيدته أن يزدهر كما فعلت فى الكنغو البلچيكى ، وكما سكتت على المذابح التى حدثت فى أنجولا .

أما بلچيكا – فكما يقول رونالد سيجال – « فقد خدعت نفسها بالنسبة لنجاح سياستها التقليدية .. اذ انها ألقت ستارا من الدخان كثيفا منع معرفة حقيقة الأوضاع المتناقضة بين ادعاءاتها وبين سياستها العملية .. خصوصا وأن ادارة الاعلام البلچيكية فى الكنغو كانت من اكفأ أجهزة الدعاية فى العالم .. ومع ذلك فان هذه الكفاءة صارت سلاحا ذا حدين ، فقد جاءت اليقظة كاسحة لكل أعمالهم – أى البلچيكيين – وأصابتهم بدهشة لم يفيقوا منها بسبب خداعهم لأنفسهم » .

وها هو الاتحاد السوفييتى ايضـا يزيد اهتمامه بأفريقيا ، فانشأ قسما لدراسة الشعوب الأفريقية فى معهد الدراسات الاتنوجرافية فى عام ١٩٥٥ ، وانشـأ مجلة شـهرية تخصصت فى الشئون الافريقية تسمى East Contemporrry وأسس جمعية الصداقة السوفيتية الأفريقية وافتتحت فروعا لها فى غينيا والسودان ومالى والسنغال وتوجو ، ثم أنشـأ عام ١٩٥٩ معهدا جـديدا للدراسات الأفريقية يضم خمسين من كبار الخبراء السوفييت لدراسـة تاريخ أفريقيـا وثقافتها ومشكلاتها الاقتصادية والسياسية المعاصرة .

كذلك الأمر بالنسبة للصين ، فاننـا نلمس مدى التقارب الذى يقوى فى هـذه السنوات ، والعلاقات الدبلوماسية الجديدة بينها وبين الدول المستقلة حديثا مثل تانزانيا وغينيا ، وما قام به مبعوثو الصين من جولات صداقة فى هذه الدول.

اما الصورة الأخيرة التى يحاول بها الشكل التقليدى للاستعمار أن يتقمصها .. فهى صورة اسرائيل ، صورة تبدو لأول وهلة انها صـورة دولة صغيرة ناشئة ، ومن ثم فلا أطماع لهـا ، وانما تريد مجرد العيش بين أسواق هذه الدول، وتمكنت فى بعض الظروف من التغلغل داخل عدد من أسواق هذه الدول ، لكن يقظة جمهوريتنا العربية المتحدة قد نجحت فى مطاردتها وطـردها من بعضها ، وتواصل العمل على تخليص شعوب أفريقيا من هذا « الهاوى » الجديد ، واستطعنا ان نكشف لهذه الدول حقيقة الصلة الخفية بين اسرائيل ودول الاستعمار القديم والجديد ، وما هى الا مخلب تنهش به هذه الدول أرض أفريقيا وخيراتها عن طريق جديد غير مباشر .

نلمس من كل هذا أن التنافس لم يعد مقصورا على انجلترا والولايات المتحدة — كما يظن المؤلف — وانما جاء الى الحلبة نوع جديد من المتنافسين . ولهـذا أستطيع أن أقول **ان المنهج التاريخى الذى سار عليه هذا الكتاب ناقص السرد .. فلو كان قد اقتصر على هذه المناطق التى ارتبطت ببريطانيا فى زمن ما بقيد الاستعمار ، وقصر بحثه على هذه المنطقة دون سواها ، لما وجهنا اليه اى انتقاد .. لكنه خرج منها الى التعميم الى دول أفريقيا كافة .. من غير التفات لظروف وطبيعة وتاريخ كل منطقة على حدة .. وهنا موطن الخطأ .**

لكننا نتساءل .. ما السبب فى اهتمام هذه الدول كلها بقارتنا السوداء ؟ أما هنـاك مـن قارات اخرى تغرى بمثل هذه المحاولات ؟ .. وهل تعتبر هذه القارة خلوا من دول أو دولة افريقية تجعل من نفسهـا المدافع الأول عـن حقوق شعوبها ؟ .. وهل نستطيع التوصل الى مبـدأ مونرو افريقى يحميهـا من كل تدخل او اعتداء ؟ .

ويكفى للاجابة على هذا ان نرجع الى مقال افتتاحى بجريدة « التايمز » عام ١٩٤٩ يقول **« ان أفريقيا هى القارة الجديدة ، وهى محور التنمية فى القرن العشرين ، ومركز المشكلات الخاصة بالأجناس ، وحلقة الاتصال بين أوروبا وأمريكا من ناحية وبين أوروبا واستراليا ونيوزيلندا والشرق الأقصى من ناحية أخرى »** .

ونلحظ من تاريخ نشر هذا المقال الافتتاحى انه قريب العهد بمأساة فلسطين ونشأة اسرائيل عام ١٩٤٨ ، ونطبقه على مقدار المحاولات التى تقوم بها هذه الدولة بالنسبة لأفريقيا .. فندرك مدى الأهمية التى يعقدها الاستعمار التقليدى على هذا الوجود الاسرائيلى فى هذه المنطقة .

ويلزم ايضا ان نقرن هذا بما سبق أن صرح به قديما السياسى النمسوى الداهية مترينخ حين قال « يوم توجـد دولة افريقية كبيرة يوم أن ينتهى الاستعمار الأوربى من قارتها » .. فهل يحسن أن تكون هـذه الدولة الأفريقية الكبيرة موجودة فى مواجهة هذا المخلب الاستعمارى الجديد — اسرائيل ؟ .. لكننا للرد على هـذا السؤال **يجب علينا أن نعرف سلفا أن مبدأ مونرو الذى يطالب به بعض الدعاة فى أفريقيا .. لم يثبت نجاحه فى الأمريكتين ، ولم تعد الدول الصغيرة فى حاجة الى حماية دولة كبيرة ولو كانت من بنات قارتها ..** فلم تعد دول أمريكا اللاتينية تعترف بوصاية أو حماية الولايات المتحدة الأمريكية لها .. مادام أن هناك هيئة أمم دولية ، مادام أن الوعى العالمى لم يعد ليسمح بمثل هذه

المحاولات القديمة ان تعود ، ومادام انه اصبح فى امكان الدول الحديثة الاستقلال ، والمتشابهة فى الظروف الاقتصادية ، ان تتفق وتتكامل .

لهـذا نقول .. **ان وجود الجمهورية العربية المتحدة كدولة أفريقية عربية كبيرة فى مواجهة هذا الشكل العصرى للاستعمار الجديد .. ليس معناه أنها اتخذت من نفسها موقف الحامى للقارة من الأطماع الاستعمارية فى القرن العشرين .. وانما الاستعمار هو الذى ركز عليها هجومه الحديث .. لاعتقاده أنها هى الدولة ذات المقومات الكافية لايجاد مجتمع رائد ، تحتذيه بقية الدول النامية فى القارة** ، ومن ثم ينتهى من القارة كل استعمار .. لا الاستعمار الأوروبى فقط الذى أشفق عليه متورنيخ .

فلو كان الهدف الحقيقى من ايجاد اسرائيل فى هذه البقعة هو استنزاف قوة الجمهورية العربية المتحدة أولا بأول حتى لا تتمكن من استكمال بنائها ، فلا أقل من ان نفوت على الاستعمار تحقيق هذا الهدف ، ونتحكم نحن — كما يقول الرئيس جمال عبد الناصر — فى تحديد وقت اللحظة الحاسمة ، التى نتأكد تماما أنها لن تقوم له بعدها قائمة .

الا أن هذا ليس معناه أن نقتصر على بناء أنفسنا فقط ، وانما تحتم علينا وحدة المصير ، ان يكون التفاعل قائما ومتصلا بيننا وبين دول أفريقيا كافة .. فما هو نوع هذا التفاعل ؟ .. أو هل من طريق آخر كما يقول مؤلف الكتاب ؟

ولكى أجيب على هذا .. أمسك بالكتاب بين يدى متأملا .. فمع مافيــه من اختـلافات فى وجهات النظر ، وبالرغم مما فيه من شـطط فى الرأى باعد بينه وبين الصــواب .. أرى نفسى مضطرا لشكر هذا المؤلف الصديق ولا شك ، وغير العليم بدقائق الأحوال فى أفريقيا .. فأصبح من الواجب على القارىء لهذا الكتاب ان يطلع هـذا الصديق البعيد على الحقـائق .. اما عن طريق كتاب مماثل أو مقال كهذا أو اية وسـيلة من وسائل الاعلام .

ونخرج من هذا بالاجابة عن تساؤلى السابق .. فأستطيع ان أقول **ان هذا التفاعل لابد وأن يكون ثقافيا ، بكل ما تحتويه هذه اللفظة من معان .. يجب أن يجاهد أبناء أفريقيا فى توسيع رقعة هذا التفاعل الثقافى حتى يشمل القارة كلهـا ، يجب أن يكون النمو الأفريقى الموحد معتمدا على ركيزة فكرية دارسة .. دارسة لتراثها ، منقبة عن كنوزها المعنوية والمادية ، واعية لكل التيارات العالميــة المحيطة بهـــا .. يجب أن يكتشف الأفريقيون قارتهم من جـــديد .. بلا عنصرية أو عقد ، بل بانسانية واعية .. وبدون حقد أو تجمد ، بل باشتراكية نامية .** فننقب عن الفنون الشعبيةالأفريقية ، ونتناولها بالتحليل والتطوير ، ثم نتبادل مظاهرها فى شتى نواحيها . وندرس المعتقدات والعادات والتقاليد لمجتمعات القــارة دراسة علمية خالصة ، لمعرفة المتشابه منهـــا والمختلف . ونتناول اللغات المحلية الســائدة والمنقرضة لمعرفة أسباب انقراضها أو بقائهـــا ، ومدى استجابتها للغات العالمية المكتملة وكيفيـة تطويرها .. وغير هذا الكثير فى مجالاتالثقافة .. ان صح العزم وصدقت النية . فان كان لابد من وجود زيادة تحمل المشعل وتنير الطــريق .. فهاهى جمهوريتنـــا وهاهى غانا ومالى ونيجيريا والجزائر تشق الطريق لبقية الدول .. وهنـــا ترن نغمات الأنشودة الهندية القديمة للآلهــة آلكالى السوداء فى اذنى .. عنـدما تقول « أنا لا أخاف الظلام .. بل أحبه ...

فلما أرى ظلمة تحيط بى أفكر فى « الله »

أفكر فى « أمى السوداء » .. فلربما تخفف من حدة مايحيط بى .

فلما أرى « شبح الخوف » يتبعنى فى الظلام أدعو أمى .. أمى السوداء .

فاننى بين الظلمة الحالكة .. أقدر على رؤية النور الذى تشعه قدما أمى .. أمى السوداء بلونهما الوردى الجميل » .

فهاهى قارتنا الســـوداء تنادى أبناءها أن يعيدوا اكتشافها على نورها الجديد .

جمال بدران

الناشر مشروع الألف كتاب بالاشتراك مع مؤسسة سجل العرب ٤٢٣ ص ١٧×٢٤ سم ث ٢٩ قرشا

مشكلات المستقبل

تأليف : هاريسون براون

ترجمة : محمود محمد موسى

مراجعة : د. عبد العزيز كامل

يسود تنازع البقاء والكفاح من أجل الحصول على القوت والصراع ضد الفناء فى كل مكان على الأرض ، حتى ولو بدا هــذا المكان لأول وهلة كالجنة الدانية القطوف ! ولقد اتخذ المؤلف من جزيرة جاميكا صورة مصغرة للعالم ، وراح يفكر فى مصيره عندما أثارت مشاعره تلك الجــزيرة الجميلة بما حوت من متناقضات ، وحملته على بذل الجهد لاخراج هــذا الكتاب الذى يعتبر بمثابة دراسة قيمــة لماضى البشر وحاضرهم والتكهن بمستقبلهم على أساس الحلول المبنيــة على أسس قويمة تضع امامنا عــدة احتمالات يمكن أن يكون جانب منها أكثر توقعا من غيره ، رغم ان كل هــذه الاحتمالات جائزة فى ضــوء مايتوفر لدينا من معلومات فى الوقت الحــاضر . وفى مقدورنا ان نرسم على اية حال صورا لما قد يحدث تبعا لكل حالة من حالات سلوكنا .

وأهم ما يتحدث عنــه المؤلف حرج مركز المدنية الآلية فى الوقت الحاضر ، تلك المدنية التى خلقت من المشكلات أكثر مما حلت ، رغم انهــا جعلت بعض الأمم تعيش فى مرحــلة من مراحل الرخاء التى لم يسبق لها مثيل ولم يعهدها البشر من قبل . وهو يقرر أنها فى سبيلها الى الزوال الى غير رجعة مالم تتخذ من أجل بقائهــا بعض الاحتياطات الهامة ، وعندئذ اذا ماقدر لها البقاء

فى القرون المقبلة فان ذلك يعنى عدم وقوف احتمالات رخاء البشر وانتصاراتهم عند حد معين ، وهى نتيجة تعتمد فى أساسها على مقدرة الانسان على التعرف على المشكلات التى نشأت ، وتوقع ما سيجد منها فى المستقبل ، مع ابتكار الحلول التى تستطيع البشرية بأكملها أن تقرها. واننا لنجد أمامنا فى هذا العصر الكثير من المشكلات التى يمكن أن نتعرف عليها ، وهى تحتاج من أجل التغلب عليها الى قدر وفير من الذكاء والتبصر والشجاعة . وليس الحل من المستحيلات ، الا انه بعيد الاحتمال فى ضوء ما نلمس من طبيعة البشر ، ولهذا يرجو المؤلف أن يكون كتابه هذا عونا لنا على فهم وحسن ادراك المشكلات القائمة والعلاقة بين الانسان وبيئته الطبيعية ومقدرته الفنية .

وينقسم الكتاب الى سبعة فصول ، تعالج على الترتيب مواضيع ظهور الانسان ، فالموقف الحاضر ، ثم تعطى بعض الاحصائيات اللازمة من أجل تحديد مدى مشكلات القوت ، والطاقة ، والمواد ، ورسم صور بعض أنماط المستقبل .

وبطبيعة الحال الانسان هو آخر ما ظهر من كائنات على مسرح التطور ، ولقد ساد الأرض وتملكها بما تميز به من قوة التفكير ، تلك القوة التى كانت آثار ظهورها فوق مسرح التطور متعددة النواحى ، خصوصا عندما راح عدد البشر يتزايد من بضعة مئات الى البلايين خلال فترة من الزمن لا قيمة لها بالنسبة الى عمر الغلاف الجوى مثلا ! فوسط لجة هذا التكاثر البشرى يحق لنا أن نتساءل عن المدى الذى سوف يصل اليه تعداد سكان الأرض ، كما يحق لنا أن نتكهن بمصيرنا : فهل كتب الفناء علينا كما سبق أن كتب على مملكة الزواحف الكبرى من قبلنا ؟ أم هل سنصل الى نوع جديد من التوازن يمكن الانسان من أن يعيش فى توافق مع بيئته ؟ ثم الى أى حد سوف يبقى الانسان محتفظا بالقدرة على تحديد مصيره ؟ وهل فى مقدوره ان يخلق علاقات مستقرة بينه وبين بيئته ، أم ان طبيعة حاجاته وعلاقاته بالعالم الخارجى هى من النوع الذى يدفعه فى قسوة الى الهلاك ؟ .

لقد سبق أن نادى فريق من الناس بأن الجماعات البشرية اذا لم يتوقف نموها بطريقة من الطرق فان عددها سوف يتزايد بسرعة تفوق الى حد كبير سرعة نمو موارد الغذاء . وخلال عصر التوسع الاستعمارى وزيادة التصنيع فى أوروبا كان يبدو أن موارد الأرض تستطيع أن تكفى اعدادا من البشر لا نهاية لها ، ولكن ظهرت أخيرا البحوث التى تحذر من احتمال وقوع الكوارث بسبب تزايد السكان وسوء استعمال الأرض الخ ...

فمثلا قذفت المانيا بنفسها الى أتون حربين بسبب حاجتها الى الأسواق وقلة مواردها وشهوة زعمائها الى السيطرة ، وراحت اليابان تتوسع جريا وراء المواد الأولية والغذائية ووراء الأسواق . وكافح الاسيويون والأفريقيون الاستعمار الغربى ، وصار الشعار عدم الاطمئنان الى الرجل الأبيض الذى حارب من أجل الاحتفاظ بأسواقه وموارده . وهاهو ذا الاتحاد السوفييتى يعمل على تأمين سلامته ونشر عقائده الاقتصادية والسياسية ... ولكن الخطر الأعظم من اندلاع نيران حرب عالمية مدمرة انما يأتى فى الأصل من خمس العالم الذى يشمل البلاد الصناعية التى قطعت شوطا بعيدا فى طريق التصنيع . **وليس فى الامكان فصل مشكلة تجنب الحرب عن مشكلة تجنب الجوع والحرمان ، فالتفكير فى ابعاد شبح الحرب لابد أن يتضمن كذلك التفكير فى تخفيف ويلات البشر المختلفة فى كافة أرجاء الأرض .**

ويبين الكاتب فى جلاء ووضوح أن زيادة انتاج العالم من الطعام انما تحتاج (بطبيعة الحال) الى المزيد من التصنيع ، وهذا بدوره يحتاج الى مزيد من استهلاك موارد الأرض من فحم وزيت وحديد وفوسفات وغيرها من المواد. ومن الضرورى أن نبحث من الآن عن المدى الذى عنده تقف صعوبة الحصول على هذه المواد فى سبيل التقدم البشرى . ولما كنا على بينة من ان

مواردنا من الفحم وزيت البترول سوف تنفد فى المستقبل القريب ، فان مستقبل الطاقة الذرية يبدو مشجعا اذا ما وجــه الى خير البشرية ، بصرف النظر عن الصعوبات الفنية البحتة .

وسوف يأتى فى النهاية يوم تعــمم فيــه استعمالات الطاقة الشمسية (التى لا تنفـد) بطريقة مباشرة ، الا ان التقدم فى استخـدام الطاقة الذرية انما يعمل على تأجيل اليوم الذى تعمل فيه الآلات بطاقة الشمس فى هذا العصر . وبطبيعة الحال عنـدما تنتهى موارد الأرض من الوقود الصــخرى ويتم استهـلاك اليورانيوم والثوريوم كافة ، سوف نتجه حتما الى اشعاع الشمس للحصول على ما يلزمنا من طاقات .

وتعليقنا على ذلك **ان فكرة استخدام الطاقة الشمسية فى الصناعة هى الى حد كبـير فكرة واهية نظرا لقلة كثافة هذه الطاقة التى تصـل سطح الأرض مالم تستخدم مجمعـات كبـيرة المساحة أو يجد ما ليس فى الحسبان !**

اما من حيث الموارد وانماط المستقبـل فيذهب الكاتب بعد عمل احصائيات مطولة الى أنه سوف تصبح المواد الأولية الأساسية اللازمة للصناعة فى المستقبل هى ماء البحـر والهواء والصخر العــادى ورواسب الحجـر الجيرى والصخور الفوسفاتية وضوء الشمس ، وذلك نظرا لنفاد مالدينا منها تدريجيا ولما سيجد من ظروف ، خصوصا وان صناعات المستقبل سوف تكون أكثر تكاملا وتعقيدا من الصناعات الحالية، وتلك مرحلة انتقالية هامة .

وقد يكون الموقف السياسى والاقتصـادى فى العالم آنئذ عاملا على تعويق هذه المرحلة ، كما أن احتمال النهوض بعد الانهيار هو احتمال بعيد، فان الفوائد التى يجنيهـا الانســان من وراء المعلومات التى توصل اليها مجتمع سابق قد تقلل من قيمتها ندرة المواد الأولية اللازمـة لقيـام مجتمع صناعى ناجح . وعلى أية حال فان كـل شىء يستطيع الانسان أن يتصــوره يمكن أن يحقق ، مالم يتعارض وهذا التحقيق معالقوانين الطبيعية والبيولوجية الأساسية .

وربمـا تكون مســألة تصنيع منـاطق العالم المتخلفة هى أصعب مهمة تواجـه الجنس البشرى فى الوقت الحاضر حتى يتحقق الاكتفاء الذاتى لكل اقليم ، وهو هدف يجب أن توجـه اليه جهود معظم أقاليم العــالم الكبرى بأقصى سرعة ، وذلك من وجهة نظر الاستقرار العـالمى الطويل المدى . ويتخيل الكاتب عالما يقــوم كل اقليم فيه بكفاية نفسه ، ويكون للنــاس مطلق الحرية فى حكم أنفسهم بالطريقة التى يرونها ، وفى خلق نظمهم الثقافية الخاصة ، ويكون لكل فرد صوت فى اختيار الحكومة ... وهــو عالم تمتزج فيه قوى الانسان الخلاقةونشاط الطبيعة الخلاق ... وهناك فرصة للنجاح فى خلق مثل هذا العالم اذا بذلت المحاولة وصدقت النيـة . ولقد صاغ المؤلف عباراته بطريقة علمية مقنعة كما تمت الترجمة بأسلوب سهل اخاذ .

د . محمد جمال الدين الفندى

أخبار الكتاب العربي في العالم

● لم تقف جهود « الدار المصرية للتأليف والترجمة » عند حد وضع معاجم عربية جديدة وقد أشرنا الى بعض تلك الجهود فى هذا الميدان — بل أخذت الدار على عاتقها أمانة نشر التراث العربى القديم فى هذا الميدان ليتضافر القديم والحديث على اقامة ثقافة قوية الأساس ، شامخة البنيان ، عربية السمات ، فصيحة اللسان .

من اجل ذلك فكرت « الدار المصرية للتأليف والترجمة » فى نشر معجم **« لسان العرب »** الذى الفه الامام اللغوى جمال الدين محمد بن المكرم المعروف بابن منظور الافريقى المصرى ، الذى خدم فى ديوان الانشاء بالقاهرة ، وولى القضاء فى طرابلس ، وتوفى بعد ذلك فى القاهرة سنة ٧١١ هـ (١٣١١ م) بعد أن ختم الأعوام الثمانين من حياته ، وترك بخطه نحو خمسمائة مجلد ، من بينها كتاب « مختار الأغانى فى الأخبار والتهانى » الذى اختصر فيه كتاب « الأغانى » ، وتقوم الآن « الدار المصرية للتأليف والترجمة » بنشره محققا فى ثمانية اجزاء بعد أن عهدت الى طائفة من الأساتذة المحققين القيام بتحقيقه ، وظهر منه الجزء الأول بتحقيق الأستاذ ابراهيم الابيارى ، كما أشرت الى ذلك فى هذا الباب من العدد الرابع عشر من هذه المجلة . وكان ابن منظور — كما يقول ابن حجر العسقلانى — مغرى باختصار كتب الأدب . كما ذكر ابن أيبك الصفدى ذلك فقال : لا أعرف فى كتب الأدب شيئا الا وقد اختصره .

ومعجم **« لسان العرب »** هو أوسع المعاجم العربية مادة وذيوع صيت . جمع فيه بين « التهذيب » للأزهرى (المتوفى سنة ٣٧٠ هـ) و « الصحاح » للجوهرى (المتوفى سنة ٣٩٣ هـ) و « المحكم » لابن سيده (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) وحواشى العالم اللغوى عبد الله بن برى (المتوفى سنة ٥٨٢ هـ) وهى حواش على صحاح الجوهرى ، و « النهاية فى غريب الحديث » لابن الأثير مجد الدين (المتوفى سنة ٦٠٦ هـ) . وقد ضم **« لسان العرب »** ثمانين الف مادة ، وشرح فيه ابن منظور ما أتى به فى الشواهد من آيات وأحاديث وأشعار .

وقد رأت « الدار المصرية للتأليف والترجمة » أن تنشر هذا المعجم بطريقة « الأوفست » على النسخة التى طبعت لأول مرة بالمطبعة الأميرية فى عشرين مجلدا من سنة ١٣٠٠ — ١٣٠٧ هـ ، لما لهذه الطبعة من قيمة علمية كسبتها على مدى الحقبة الطويلة من الزمن يشار خلالها الى ارقام صفحاتها وسطورها فيما نشر علماء العرب

يقدمه مدير التحرير

والمستشرقون من آثار تراثنا الخالد فى مصر والخارج .

وستنضم الى اجزائه العشرين اجزاء تحتوى على التصويبات التى قام بها بعض العلماء ، ثم فهارس تلم بالشواهد وأصحابها ، فتيسر على الباحثين الوصول الى بغيتهم فى أسرع وقت ، ومن أيسر طريق .

وكانت الطبعة ــ التى تنشر الطبعة الجديدة مصورة عنها ــ قد بلغت من الندرة مبلغا بعيدا ، وارتفع ثمنها الى الحد الذى لا يستطيع الكثيرون دفعه فيها ، على الرغم من اعادة طبعه فى طبعة جديدة فى بيروت مرتفعة الثمن أيضا وهى مجموعة بحروف جديدة ، ولا يؤمن فى اعادة طبع مثل هذه المعاجم وقوع أخطاء تزيد الطين بلة ، وهذا ما دعا « الدار المصرية للتأليف والترجمة » الى أن تتجنبه بتصوير الطبعة المعتمدة لدى العلماء ، ولتختصر الوقت على الذين يؤملون فى الحصول على هذا الكنز اللغوى الثمين .

● ومن أجل الغرض الذى فكرت فيه « الدار المصرية للتأليف والترجمة » فى نشر « لسان العرب » ، فكرت كذلك فى نشر معجم كبير يسبق « لسان العرب » بأكثر من ثلاثة قرون ؛ هو معجم « **تهذيب اللغة** » لأبى منصور محمد بن احمد بن ازهر الهروى المعروف بالأزهرى نسبة الى جده المذكور المتوفى سنة ٣٧٠ هـ . وقد قرأ على طائفة من أئمة اللغة مثل ثعلب وابن دريد ونفطويه ، ثم طوف فى الجزيرة العربية وراء اللغة ، وأقام دهرا طويلا بالبادية أسيرا فى يد قوم من البدو فأفاد من احاديثهم كثيرا من الألفاظ التى ادخلها فى معجمه ، ولذلك يقول فى مقدمته : « ولقد حرصت ألا أودعه من كلام العرب الا ما صح لى سماعا من اعرابى فصيح ، او محفوظ لامام ثقة ، حسن الضبط ، مأمون على ما أدى » . ويكرر ذلك فيقول : « ولم أودع كتابى هذا الا ما صح لى سماعا منهم ، أو رواية عن ثقة ، او حكاية عن خط ذى معرفة ثاقبة اقترنت اليها معرفتى » .

ومعجم « **تهذيب اللغة** » من بين الأسس التى قام عليها معجم « **لسان العرب** » فقد جمع ابن منظور فى **اللسان** مادة كثيرة من **التهذيب** ، ناسبا اليه كل ما نقله عنه .

وقد جرى الأزهرى فى ترتيب معجمه على حسب مخارج الحروف ، وهو الترتيب الذى جرى عليه من قبله الخليل بن احمد الفراهيدى (المتوفى سنة ١٨٠ هـ) فى معجمه المسمى « **كتاب العين** » . وهذا الترتيب يبدأ بحروف الحلق حتى ينتهى الى الشفة : وترتيبه هكذا : العين والحاء والهاء والخاء والغين ، والقاف والكاف ، والجيم والشين والضاد ، والصاد والسين والزاى ، والطاء والتاء والدال ، والظاء والذال والثاء ، والراء واللام والنون ، والفاء والباء والميم ، والواو والياء والألف . أى فى تسع مجموعات من الحروف . وهو ترتيب معجم « المحكم » لابن سيده الا أنه خالفه فرتب المجموعة التاسعة هكذا : الألف والياء والواو .

وكانت « الدار المصرية للتأليف والترجمة » قد عهدت أمر تحقيق هذا المعجم الى **الأساتذة :** الشيخ محمد على النجار ، الدكتور عبد الحليم النجار ــ رحمه الله ، عبد السلام هارون ، الدكتور عبد الله درويش ، عبد الكريم الغرباوى ، محمد أبو الفضل ابراهيم ، على حسن هلالى ، محمود فرج العقدة ، محمد عبد المنعم خفاجى ،

عبد العظيم محمود ، أحمد عبد العليم البردونى ، عبد السلام سرحان ، يعقوب عبد النبى .

وسيظهر هذا المعجم فى اثنى عشر جزءا ، وقد تم طبع الجزء الأول منه .

● وفى هذا الميدان المعجمى يؤدى « مجمع اللغة العربية » بالقاهرة فريضة واجبة عليه لأنها ألصق برسالته ، فقد نهض بنشر معجم « **التكملة والذيل والصلة** » للامــام رضى الدين الحسن ابن محمد بن الحسن الصفانى – ويقال الصاغانى المتوفى سنة ٦٥٠ هـ . وقد جمع فيه ما فات الامام أبا نصر اسماعيل بن حماد الجوهــرى المتوفى سنة ٣٩٣ هـ صاحب معجم « **الصحاح : تاج اللغة وصحاح العربية** » .

وقد ضم معجم « **التكملة** » للصفانى ستين ألف مــادة رجع فيها الى الف كتاب فى غريب الحديث واللغة والنحو والصرف وأخبار العرب وأيامهم وأشعارهم وحيوانهم وأسلحتهم الى غير ذلك من المواد . وصحح الصفانى للجوهــرى ما غلط فيه أو وقع فى كتابه من تصحيف وتحريف فى الكلمات والأسماء ، وصحح نسبة الشــواهد الى قائليها ، وغير ذلك من الفوائد ، مما يجعل نشره واجبــا لا مفر منــه ليكون الى جانب « الصحاح » .

لذلك كان عمل « مجمع اللغة العربية » فى نشر هذا الكتاب عملا يستحق التقدير ، كما يدعو أبناء العربية جميعا الى أن يطالبوا المجمع الموقر بالمزيد من هذا العمل فى سبيل نشر بقية المعــاجم العربية جميعها نشرا محققا أتم تحقيق .

وقد عهد المجمع أمر تحقيق كتاب « **التكملة** » الى الأساتذة : عبد العليم الطحاوى ، عبد الكريم الغرباوى ، عبد الستار فراج ، مصطفى حجازى . وينتظر أن يصدر فى ثمانية أجزاء .

وتم تحقيق الجزء الأول منه وهو يبدأ من باب الهمــزة الى أول باب الجيم الذى حققه الأستاذ عبد الكريم الغرباوى ، والجــزء **الثالث** من باب العين فصل الدال الى باب الراء فصل الغين وحققه الأستاذ مصطفى حجازى . وسيتم اخراج باقى أجزائه التى يوشك تحقيقها عــلى الانتهاء .

● وعــلى ذكر المعــاجم نذكر أن المتحف البريطانى بلندن قد حصل أخيرا على مخطوطة يرجع تاريخها الى الف عام من معجم « **المحيط فى اللغة** » للصاحب اسماعيل بن عبــاد المتوفى ســنة ٣٨٥ هـ . وولى الوزارة لمؤيد الدولة ابن بويه الديلمى ثم لأخيه فخر الدولة ، وكان سلطان البويهية قد شمل العــــراق وفارس وخراسان فى القرن الرابع حتى منتصف القرن الخامس ، وكان ســــلاطينهم لا يستوزرون أو يستكتبون الا العلماء والشعراء والكتاب ، فكان من وزرائهم وعمــالهم وقضاتهم وكتابهم : ابن العميد والصاحب بن عباد وسابور بن أردشير والمهلبى .

ومعجم « **المحيط فى اللغة** » يقع فى ســبعة مجلدات ، قال القفطى عنه فى كتابه « انباه الرواة على أنباه النحاة » انه : « كثر فيه الألفاظ وقلل الشواهد ، فاشتمل من اللغة على جزء متوفر ، وهو مرتب على الحروف ، وهذا الكتاب فى وقف بغداد ، وذكر لى ياقوت الرومى الناسخ انه نسخ منه نسخة بالأجرة فى **سبعة مجلدات** » .

وتوجد فى دار الكتب بالقاهرة نسخة من الجزء الثالث مخرومة منسوخة فى القرن السابع وتبتدىء بباب اللفيف من حرف الفاء وتنتهى الى أول حرف الزاى ، وهى فى ٢٧٤ ورقة .

أما النسخة التى اقتناها المتحف البريطانى فيعتقد أنها المخطوطة الوحيدة الكاملة ، وهى سليمة وقد كتبت عناوين الفصول بماء الذهب ، كما كتبت الكلمة الأولى من كلمات كل حرف بماء الذهب أيضا وبالخط الثالث – والكتابة المذهبة لا تزال تحتفظ بوضوحها وجمالها ورونقها .

● « **الباقلانى واعجاز القرآن** » رســــالة نشرتها « دار المعارف » للأستاذ السيد أحمــد صقر تناول فيها موضوع الاعجاز الذى كان من أبرز المسائل التى تعاورها العلماء بالبحث أثناء تفسيرهم للقرآن ، وردهم على منكرى النبوة ، وخوضهم فى علم الكلام ، وكان علماء الاعتزال أكثر المثيرين للكلام فى اعجاز القرآن . ثم تناول الأستاذ صقر الثلاثة الكتب التى بقيت مما ألف

فى القرن الرابع عن الاعجاز فى القرآن ، فعرض لنا هذه الكتب الثلاثة بالبيان والتحليل ، وهى « اعجاز القــرآن » للرمانى المعتزلى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ ، و « اعجاز القرآن » للخطابى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ ، ثم « اعجاز القــرآن » للباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ .

وكان الأستاذ السيد أحمــد صقر قد قام بتحقيق كتاب « **اعجاز القرآن** » لأبى بكر محمد ابن الطيب الباقلانى ، وهو أشــهر الكتب التى ألفت فى هذا الموضوع . وقامت « دار المعارف » بنشر هذا الكتاب سنة ١٩٥٥ فى سلسلة « ذخائر العرب » . ثم اعادت طبعه مرة أخرى أخيرا .

وقد عنى الأســتاذ السيد صقر بما خلف الأقدمون من تراث حول القرآن فحقق كتابين جليلين لابن قتيبة هما : « **تأويل مشكل القرآن** » و « **تفسير غريب القرآن** » ، ثم كتاب « **أسباب نزول القرآن** » لأبى الحسن على بن أحمــد الواحدى مؤلف شرح ديوان المتنبى .

● انتهى الأســتاذ الدكتور مراد كامل من وضــع كتاب سيقدمه للنشر عن أول أكاديمية للعلوم انشئت فى الاسلام ، وهى التى عرفت فى العصر العباسى باسم « **بيت الحكمة** » ببغداد ، وينسب انشاؤها الى الخليفة العباسى هارون الرشيد ، ولكن ازدهارها تم فى عهد ابنه المأمون . وكان بيت الحكمة يضم مجموعة من الكتب بلغاتها الأصلية كاليــــونانية والسريانية والهنــدية والفارســــية ، ويتردد على مكتبته الضخمة المترجمون والنساخ . وكان يظن أن بيت الحكمة مكان مقصور على الترجمة ، فاثبت أن هذا البيت يعتبر أكاديمية للعلوم تشمل كل فروع العــلم المختلفة ، وتلقى فيه المحاضرات .

ويرى الدكتور مراد كامل أن لفظة « **بيت الحكمة** » تقابل أكاديمية الاسكندرية المعــروفة باسم « الميوزيوم » أى مكان آلهة الحكمة .

● يقوم « معهد الدراسات الشرقية » فى « اكاديمية العلوم للاتحاد السوفيتى » بموسكو بنشر طائفة من الكتب والدراسات فى اللغــات الشرقية وآدابها ، يتولاها علماء متخصصون من الروس .

والى جانب ذلك يقوم هذا المعهد بنشر طائفة من الكتب العربية المخطوطة والمحفوظة بمكتبات الاتحاد السوفييتى ، وهو ينشر هــذه الكتب بطبعها مصورة عن مخطوطتها الأصلية ، أى بخط الناسخ نفسه .

ومن بين الكتب التى تم نشرها بهذه الطريقة :

« **كتاب المنازل والديار** » تأليف مجد الدولة الأمير اسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر ابن منقذ الكنانى المتوفى سنة ٥٨٤ هـ . وهــو صاحب كتاب « لباب الآداب » الذى نشره المرحوم الأستاذ الشيخ أحمد محمد شــاكر ، وكتاب « الاعتبار » الذى نشره فى ليدن سنة ١٨٨٤ – ١٨٨٦ لأستاذ هرتويفى درنبرغ ، ثم أعاد نشره فى مطبعة جامعة برنستون بالولايات المتحــدة سنة ١٩٣٠ الأستاذ الدكتور فيليب حتى .

وقد عنى بنشر كتاب « **المنــازل والديار** » ووضـــع فهارسه المستشرق الروسى أنس خالدوف .

وكتاب « **التاريخ المنصـــورى : تلخيص الكشف والبيـــان فى حوادث الزمان** » تأليف أبى الفضائل محمد بن على بن عبد العزيز بن مزهر الحموى . وقد عنى بنشره ووضع فهارســه المستشرق الروسى بطرس غريازنيويچ .

● كذلك نشر « المعهد الفرنسى للدراســات العربية » بدمشق مجموعة من الكتب والنصوص محققة ومطبوعة أدق طباعة ، منها :

كتاب « **المعتمد فى أصول الفقه** » لأبى الحسين محمد بن على بن الطيب البصرى المعتزلى المتوفى ببغداد سنة ٤٣٦ هـ (١٠٤٤ م) . وقد عنى بتهذيبه وتحقيقه الأستاذ محمد حميــد الله بالتعاون مع الأستاذين محمد بكر وحسن حنفى ، وقد ظهر منه الجزء الأول .

وكتاب « **تعبير الرؤيا** » تأليف أرطاميدورس الأفسى ، الذى نقله من اليونانية الى العربية حنين ابن اسحاق المتوفى سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٣م) . وقد قابل النص العربى على الأصــل اليونانى وحققه وقدم له الأســتاذ توفيق فهد مدرس العلوم الاسلامية والآداب العربية فى كلية الآداب والعلوم الاجتماعية بجامعة ستراسبورج .

● **« خطوات على الشلال ومشاهد أخرى » :**
لوحات رائعة رسمتها ريشة عمـــلاق القصة العربية محمود تيمور ، فيها من رقة خلقه وعذوبة حديثه ، ومن شموخ أدبه وعلو أسلوبه ، ملامح جذابة لا تترك لك مجالا تفرغ منها اليه حتى تنتهى من مطالعتها ، وهو فى خلال تصـــويره يحدد الهدف الأصيل للأدب وهو الكشف عن الانسان « بمعناه الشامل فى خيره وشره ، فى ســطوته وضعفه ، الانسان الذى حمل أمانة الحياة ، ليمارس بها ملكاته فى دنيـــاه . والأدب الحق بما وهب من رهافة الحس ، وبما جبل عليه من فطرة الخير ، هو الذى يتخذ هذا الهدف ، واعيا أو غير واع ، سبيلا الى تطوير الانسان ، حتى يكون انسان عالم أفضل ، انسانا مثاليا فى مجتمع مثالى ، تسوده روح التعاون الصادق ، وتتحقق فيه المساواة الكاملة ، ويرفرف عليه الاخـــاء والرخاء » .

فهو خلال رحلته الى أسوان يطلعنا من خلال مشهد ضاحك رسمه لنـا على جانب مأساة حيوان أعجم تلقى عليه أعباء وأحمال فوق طاقته فيعزيه بأننا « كلنا من حملة الأثقال ، والبطولة تتجلى فى شجاعة الصبر وقوة الاحتمال » .

ويصور لنا العمل الضخم فى بناء « السد » وكيف يحنى الجبل الشامخ هامته « أمام قدرة الانسان ، ويخلى مكانه لعملاق جديد يتسـامق ليسدى الخير والبركة للوادى الخصيب .. انه عملاق السد العظيم » .

وفى خلال رحـــلة له الى « المنصورة » يقف الانسان أمام مشهد العجـــول التى تربى فى بلدة « طنامل » ومن بينها عجل صغير يتواثب حول أمه وملء أوصـــاله فرحة ونشطة ومراح يجهل ما يخبؤه له القـــدر ، كما نحيا لاهين مستبشرين بالحياة ، والقدر منا بمرصد .

ثم يقف بنا وقفة المعتز بكرامته ، المفتخـر بانتصاراته فى « دار ابن لقمان » حيث أسر لويس التاسع ملك فرنسا بعد ان دحر المصريون جيشه الغازى فى منتصف القرن السابع الهجـــرى . ويهتف بنداء التاريخ الخالد : الله أكبر .

حسن كامل الصيرفى

إدارة إحياء التراث
بالدار المصرية للتأليف والترجمة

كتاب

الأنيس في علم الأنساب

جمع

الوزير ابن المغربي أبي القاسم الحسين بن علي بن الحسين

٣٧٠هـ - ٤١٨هـ

مــلاحق

ابتـــداء بهـــذا العـــدد ستخرج مجـلة الكتاب العـــربى ومعهـا هـــذا الملحق الذى يضم مخطوطة من المخطوطات العربية الصـغيرة الحجم ، أو جزءا من مخطوطة لا يتســع لهــا ملحق واحد .

وهــذه المخطوطات تحققها وتهيئهـا للنشر ادارة احيــاء التراث بالدار المصرية للتــأليف والترجمة ، وسوف تقدمها الى القراء فى صورة مجلوة مشروحة مقابلة على مخطوطاتها المختلفـة مزودة بالفهارس والتعريف بالمؤلف والكتاب .

والمجلة تأمل بهذا أن تقدم الى قراء العربية ـ الى جانب المقال الدارس الناقــد ـ أصــلا من أصـــول العربية لم يسبق نشره لتضم الى الفائدة الأولى فائدة ثانية .

.. المجـــلة ..

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــد

وينتظم شيئين :

١ ـ ترجمة للمؤلف

٢ ـ تعريفا بالكتاب

(١)

ترجمة المؤلف

هو : أبو القاسم الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن محمد بن يوسف بن بحر ، المعروف بالوزير المغربي .

وكان مولده بمصر — فيما نرجح — سنة سبعين وثلثمائة (٣٧٠ هـ) لا سنة (٣٩٠هـ) كما ذكر العسقلاني في لسان الميزان . وكان أبوه من وزراء الحاكم العبيدي ، صاحب مصر ، فنشأ حافظا للقرآن وعدة من الكتب في النحو واللغة ، وكثيراً من الشعر بلغ ، فيما ذكره أبوه ، خمسة عشر ألف بيت ، متقنا للحساب والجبر والمقابلة ، ولم يبلغ من العمر أربعة عشر عاما أو سبعة عشر . ويقتل الحاكم أباه وعمه وأخويه في الثالث من ذي القعدة سنة أربعمائة ، كما ذكر ابن خلكان ، فيهرب أبو القاسم إلى الرملة وكانت سنه عندها قد بلغت الثلاثين ، وهناك استجار بصاحبها حسان بن الحسن بن مفرج الطائي ، فأجاره وأقام عنده مدة تركه بعدها إلى الحجاز ، ونزل مكة على صاحبها أبي الفتوح الحسن بن جعفر العلوي ، فأطمعه في ملك مصر وأغراه

بالحاكم ، غير أن الحاكم أفسد عليه خطته فهرب إلى العراق ، وهناك انتهى به الأمر إلى أن تقلّد الكتابة لمعتمد الدولة أبي المنيع قرواش بالموصل بعد موت أبي الحسن بن أبيّ كاتبه ، ثم وزر لشرف الدولة ابن بويه مكان مؤيد الملك أبي على ، ثم عاد إلى مخدومه الأول قرواش ، ثم ترك قرواش إلى ديار بكر فوزر فيها لسلطانها أحمد بن مروان ، فأقام عنده إلى أن أدركته منيّته فى الثالث عشر من شهر رمضان سنة ثمانى عشرة وأربعمائة ، على الأصح .

وحملت جثته بوصية منه إلى الكوفة فدفن بها إلى جوار مشهد علىٍّ ، كرّم الله وجهه . وفى نِسبته إلى المغرب خلاف ، فيقال إنه لم يكن مغربياً وإنما كانت لأحد أجداده ، وهو أبوالحسن على بن محمد ، ولاية فى الجانب الغربى ببغداد ، وكان يقال له المغربى أو ابن المغربى لذلك ، فأُطلقت عليهم هذه النسبة .

ويقول ابن خلكان : ورأيت خلقاً كثيراً يقولون هذه المقالة ، ثم بعد ذلك نظرت فى كتابه «أدب الخواص» فوجدت فى أوّله : «وقد قال المتنبي . وإخواننا المغاربة يسمونه المتنبه» فهذا يدل على أنه مغربى حقيقة لا كما قالوا .

وقد ذكر الذين ترجموا له من مؤلفاته :

١ ـ مختصر إصلاح المنطق .

٢ ـ أدب الخواص ، ذكره حاجى خليفة .

٣ ـ المأثور فى ملح ربّات الخدور ، ذكره حاجى خليفة .

٤ ـ تفسير ، ذكره ابن حجر فى كتابه لسان الميزان ولم يبيّن اسمه .

٥ ـ ديوان نظم ذكره ابن حجر .

وقد أورد له ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان ، وياقوت فى كتابه معجم الأُدباء جملة من شعره .

٦ ـ الإيناس .. وهو هذا الكتاب .

(٢)

تعريف الكتاب

وقد ذكره ابن خلكان وقال : وهو على صغر حجمه كثير الفائدة ، ويدل على كثرة اطلاعه . وقال عنه ابن حجر : « فى النسب » .

وذكره حاجى خليفة ، وقال : فى المحاضرات ، وهو مع صغر حجمه كثير الفائدة .

وقد وجدنا من هذا الكتاب مخطوطتين .

الأُولى : بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية ، وهى مصوّرة عن مخطوطة المتحف البريطانى ورقمها ٣٦٢٩ وقد رمزنا لها بالحرف م .

الثانية : بالمكتبة التيمورية ورقمها ٢٢٥٧ وقد رمزنا لها بالحرف ت.

وأُولى هاتين المخطوطتين ، وهى مخطوطة المتحف البريطانى ، تقع فى ٢١٦ صفحة ، من القطع الصغير وأسطر كل صفحة اثنى عشر سطر ، وكلمات كل سطر نحو من ثمان كلمات

وهى مكتوبة بقلم النسخ ، وبها فراغ كثير ، كما أن بها زيادات كثيرة عن المخطوطة الثانية ، كما أن بها تصويبات بالقلم تدل على أنها روجعت على نسخة أُولى يقال إنها بخط المؤلف .

وثانية هاتين المخطوطتين وهى مخطوطة تيمور ، تقع فى ١٢٠ صفحة ، وأسطر كل صفحة ٢٣ سطرًا ، وكلمات كل سطر نحو

من عشر كلمات ، وهى مكتوبة بخط النسخ الردىء ، وبهامشها كثير من التعليقات التى هى فيما يظهر بخط بعض القراء ، كما أن بها طمساً كثيراً وبياضاً لا تكاد تخلو منه صفحة .

وسوف يكون فى آخر الكتاب فهرس جامع مفصّل .

وإنى إذ أقدِّم هذا الكتاب الأول من هذه السلسلة التى ستضطلع بها إدارة إحياء التراث بدار التأليف والترجمة أرجو أن يكتب لها التوفيق والسداد .

إبراهيم الأبيارى

بسم الله الرحمن الرحيم

[وصلى الله على ......]

قال الوزير الإمام العالم الأوحد أبو القاسم الحسين بن على بن الحسين بن على بن محمد المعروف بابن المغربى رحمه الله تعالى[1] :

نكتب إن شاء الله فى هذا الكتاب ما يحضرنا ذكره من الأسماء التى تشاكلت بعض التشاكل وبقى بينها من الفرق ما يرتفع الالتباس[2] بإيضاحنا إياه ، مثل فَهْم وقَهْم .

ومن الأسماء التى ألفاظها لذاتٌ لا تختلف ، وأشكال لا تفترق ؛ فنعتمد بإيرادها الدلالة على اتفاقها ، وإيمان القارئ من ذعر الشك فيها ، مع ما نظنُّه من حسن موقع اجتماعها ، مثل : بكْرِ بن وائل من عدنان ، وبكر بن وائل من قحطان .

ومن الأسماء الأفراد التى وُضِعت وضعاً مشكلا ، فيُخاف على القارئ تصحيفها ؛ ما لم يكن فى علم النسب مبرّزا ، مثل : شُمس ، ومثل : أبى خَلْدة ، ومثل : شهل بن شيبان

ونورد ذلك على حروف المعجم ، ليقرب متناوله ، ويذل مجتناه ، ونحن نرى أن الأديب [المموسِّط] [3] الرتبة فى الأدب إذا صرف إلى هذا التعليق جانباً من عنايته أَمِن التصحيف فى جميع الأنساب العربية بتوفيق الله .

ولم يَخْل مع ذلك من لُمعة ثاقبة ، وأبيات شعر حسنة . نتصيد له ذكرها بالأسماء المتصلة[4] بها ، وحملنا على إثبات هذا التعليق

---

(١) التكملة من ت . (٢) فى م : اللبس .

(٣) هذه الكلمة غير واضحة فى نسخة ت » وقد أثبتناه عن م .

(٤) فى م : « المتعلقة » .

استحساننا صنيع أبي جعفر محمد بن حبيب فى كتابه المؤتلف والمختلف[1] ، فإنه لحَبَ[2] لنا هذه السبيل التى كان عليه استفتاحها ، وعلينا إكمالها وإيضاحها . وحسب المبتدئُ أن يستقصى مجهود رأيه فى استثارة ذلك الشيء المعدوم من مدافنه ، وفتق أكمام الفكر عنه ، وإبرازه لعيان طالبه ، ثم على المتعقب تتميم ما صنعه ، والاقتفاءُ به فيما ابتدعه ، والله الموفق المعين ، وله الحمد رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الهمزة

(الأَزْدُ) فى كهلان : الأَزْد ، ويقال الأَسْد ، بوزن العَقْل ، وهو الأفصح ، إلاَّ أن الأَول أكثر ، واسم الأَزْد : دِرَاءُ[3] بوزن فِعَال ، وهو دراءُ ابن الغَوْث بن نَبْت بن مالك[4] ابن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

(الأَزَدُ) وفى هَمْدان : الأَزَد بوزن البَعَل مفتوح العين ، وهو الأَزَد بن عبد الله بن قادم بن زيد بن عريب بن جُشَم بن حاشد بن خيران[5] بن نوف بن همدان .

---

(١) فى كشف الظنون : المختلف والمؤتلف فى أسماء القبائل ، والنسخة المطبوعة فى أوروبا من هذا الكتاب تحمل هذا العنوان : « كتاب مختلف القبائل ومؤتلفها » .

(٢) لحب السبيل : سلكها .

(٣) فيما نقله التاج (مادة أزد) : « دِرء » بكسر فسكون وآخره همزة ، وزاد أنه « دراء » ككتاب ، نقلا عن المؤلف هنا وأنه الصحيح ، وفى جمهرة أنساب العرب (ص ٣٣٠) « أدد » .

(٤) فى هامش ت : « ملكان » قاله الرشاطى

(٥) فى الأصل : « حيران » بالحاء المهملة وفى مختلف القبائل ومؤتلفها (ص ١٠ طبعة أوروبة) لابن حبيب : « خيوان » بالخاء المعجمة والواو . والتصويب عن القاموس (خير) والأصنام (ص ٥٧) ، ونهاية الأرب (ص ٣٢٠) والمقتضب : (ص ١١٥) .

وأكثر ما يقال فيه : أَزْد ، بغير أَلف ولا لام [١] . هذا قول علي بن محمد بن أحمد بن الحارث المُرْهِبي فى كتابه الذى صنفه فى أخبار همدان وأشعارها ، وذكر أنه اتفق له على هذا النسب أبو بكر الحِميرىّ [٢] ، قال : وكان عالماً حافظاً للنَّسب ، وابن الكلبى . فأَما محمد بن موسى بن داود العَمّى فإنه روى عن محمد بن عبد المنعم ابن إدريس المُنبّهى عن أَبى المُنذر هشام بن محمد : أَزِد ، بفتح الأَلف وكسر الزاى .

ومن أَزدِ هؤلاءِ : أَبو رَوْق المُفسِّر ، وهو عَطية بن الحارث بن عبد الرحمن .بن عمرو بن الحارث بن مالك بن خثامة بن ارد . ومنهم : سفيان بن لَيْلى . ورأيت أَبا عبد الله الكُوفىِّ قد ضَبطه[٢] : سيفان بن لَيْل ، وكان من أَصحاب المخْتار ، وهو الذى قال للحَسنِ عليه السلام لمَاَ سَلَّمَ إلى معاوية : يامُذِلَّ المؤمنين ، السلام عليك . الأُلَةَ : عبد الله اسم شائع كثير فى العرب ، وعبد اللات ، كما يولون عبد العُزّيُّ

ومن الغريب المُشكل أَنَّ فى طيءٍ رجلاً يقال له : عبد مالك بن عَبد الأُلَة ، مثل العُلَة مُخففاً ، قال النّسابون : أَرادوا بعبد الأُلَة : عبد الله . وهو عبد الأُلَة بن حارثة بن غَزيّة بن صَهْبان ، ويقولونه مَوصولاً بلفظ قد صوّرتُه لك . وهو عبد لُلَة ، بغير تحقيق للهمزة ، وعبد مالك هذا يقال له : ذو الحَصِيرَيْن ، لأَنه كان له حَصِيران من جَريد مُقيَّران يجعل أَحدهما بين يديه والآخر خَلفه ، ثم يُسد نَفْسه [٣] بإزاء السَّلفْ [٤] إذا جاءهم عدو ، وهو الذى يقول فيه حاتم الطّائى :

(١) ت : « بلا ألف ولا اجد » . وما اثبتناه من م .
(٢) فى هامش (م) خثامة بالخاء المعجمة والثاء بثلاث نقط .
(٣) عنى معهد المخطوطات ما بجامعة الدول العربية .
(٤) فى القاموس (حصر) : « ويسد بنفسه باب الطريق فى الجبل اذا جاءهم عدو » .
فى هامش ت : « من خط الحافظ الزكى الوزير : « السلف بتحريك اللام والسين . » وجدته بخطوط العلماء بسكونها : وفى رواية ابن الكلبى : ثم يسد بنفسه باب السلف اذ جاءهم العدو ، قال : والسلف طريق فى الجبل مستو .

وذو الحَصيرَيْنِ آمْرُؤٌ فى أُسْرَةٍ غُلْبِ السَّوَالِفِ من يُلاقُوا يَفْرِسُوا[1]
ومُوطَّأُ الأَكْنَافِ غير مُلَعَّنٍ فى الحىّ[2] مَشَّاءٌ إلَيه المَجلِسُ
بالحى أراد فى الحي

ومن ولد ذى الحَصيرين : أُبَيَّةُ بنت عُقبة بن زَحْر بن ذى الحَصِيرين (القائلة لأَبيها) زحرٍ[3] ، وكان زوّجها من رجل من هَمدان ، فقالت أُبيّة :

فَقُلْ لِأَبِى زَحْرٍ إِذَا ما لَقِيتَهُ فَفِيمَ المَوَالِى مِنْ رُكُوبِ النَّجَائِبِ

(الأَوس)

فى الأَنصار : الأَوس بن حارثة بن ثَعلبة العَنْقاءِ بن عمرو مُزيقياءِ ،
وفى خُزاعة : الأَوس بن حارثة .
وفى رَبيعة : الأَوس بن تغلب .

(أَسْلُم)

أسلُم بن الحافِ بن قُضاعة . وقيل : إن اسم قُضاعة : عمرو بن مالك بن عمرو بن مُرّة بن زيد بن مالك بن حِمْير ، وفى قُضاعة كلام طويل . ليس هذا موضعه

ومن أَسْلُم : عُذْرة المَعروفون بالعِشْق والرقة .

ومنه أيضا : بنو نهد (وسيرد لهاتين القبيلتين إن شاءَ الله ذِكر مُستقصى فى مواضعه من هذا الكتاب ، فلذلك ذكرناه ههنا ذِكراً مخففاً)[4] ، ورأيت بخط شبيل النسّابة : قال أبو هُريرة : كان حَوْتكة بن سُود بن أَسْلُم ، صاحب فرعون بمصر[5] ، ولا أدرى ما صحة ذلك .

---

(١) رواية البيت فى شعراء النصرانية :
وذو الحصين وفارس ذو مرة بكتيبة من يدركوه بفرس
(٢) م فى شعراء النصرانية : « بالحى » . (٣) ساقطة من ت .
(٣) كذا فى م وفى ت : « تقول زحر : مجرور على البدل لا على أنه مضاف اليه » .
(٤) ساقطة من ت . (٥) الجمهرة (٤٤٣) : «وحوتكة بطن بمصر».

أَسْلُم بن القياتة [1] بن غافِق بن الشَّاهد بن عَكٍّ ، وقيل : إن اسم عك : الحارث ، واختلفوا فى نسبه ، فقال قوم : هو عَك بن عدنان بن عبد الله بن الأَزْد بن الغوث . وقال آخرون ، وكأنه أثبت : هو عك بن الدِّيث بن عدنان بن أُدد .

[وفى ذلك يقول الكُميت بن زيد الأَسَدِى :

لِعَكٍّ فى مناسبها منار إلى عدنان واضحة السبيل] [2]

وقال عباس بن مِرداس السُّلمىُّ :

وعَكُّ بنُ عَدْنانَ الَّذين تلَعَّبُوا بغَسَّان حَتَّى طُرِّدوا كُلَّ مَطْرَدِ

(وقال عباس هذا الشعرَ يفخر بغلَبة عَكٍّ على غسَّان ، وذلك أن غسَّان مَاء باليمن ، فكان على هذا الماء بنو عامر [وأمرئ القيس ، وكُرز بنى ثعلبة بن مازن بن الأزر ، وكان عليه أيضاً غير هؤلاء] [1] من الأَزد ، وكانت [3] عك بن عدنان فى أسفل ذلك الماء ، وكانوا فيه زمناً ، ثم إن راكباً جاء حتى وقف على غَسّان ، فاستسقاهم فسقَوه لبناً مُرْغياً . ثم أتى عَكًّا ، فسقَوْه لبناً ضَيْحاً [أى رقيقاً ، فقال لهم مالى أرى لبن إخوتكم مُرغياً ولبنكم ضَحياً ؟] فقالوا : والله ما نعلم ، إنَّ شِرْبنا لواحد ، وإنَّ مَرعانا لواحد ، وإن مَنزلَنا لواحدُ . إلاَّ أنهم فى عُلاَوته ونحن فى سُفَالته .

قال : فذلك الذى أرغَى لَبنهم ، وأَضاح لَبنكم ، وذاك أنهم يَشْربون صفو [4] الماءوتشربون كدره [4] ، ويَرعون أنف الرّعى ، وتَرعون غَدَرَه [5] وتسرح إبلهم مُستقبلةً الريحَ بأفئدتها ، مُستدبرة الشمسَ بضَرّاتها . فجاءَت عَكٌّ يَطلبون من غَسان المُناقلة فى المنازل ، فغضبت غسانُ ،

(١) كذا فى م . وكتب عليه بعلامة الصحة ، وفى مختلف القبائل (ص ٥) : « القيانة » .

(٢) ساقطة من ت .

(٣) فى ت : فكانت .

(٤) ت : « ندره » .

(٥) الغدر : القطعة من الماء يغادرها السيل .

وقاتلوهم فهزموهم ، وأعطتهم عَكٌّ الإتاوةَ تسعاً وعشرين [١] سنة أوكَوْها [٢] .

ثم إنه نَشأَ فى عكٍّ غلامٌ مارد ، يقال له سَمَلَّقَة بن مُرة ابن الفجّاع [٣] ، أحد بنى غافق بن الشاهد بن عَكٍّ ، فحمل قومه على قتال غسّان . فى حديث طويل ، فقاتلوهم فانهزمت غسّان يومئذ . [وفى هذا اليوم قيل :

غسّانُ غسّانٌ وعكٌّ عكٌّ والأَشعريُّون رجــال صُكٌّ
سيعلمون اليوم من أَرَكُّ .

يعنى بالأَشعريين بنى الأشعر بن أدد ، إخوة عدنان بن أدد — وكان اسم الأشعر : نَبْتٌ ، ويقال والله أعلم إنهم انتسبوا فى اليمن فقالوا : الأَشعر هو نَبْت بن أدد بن زيد بن يَشْجُبُ بن عَريب بن زيد بن كهلان ابن سَبأ بن يَشجب بن يَعْرب بن قحطان] [٤] .

وسملَّقة هذا أول من جَزَّ ناصية أسير وأَطلقه ، ولم تكن إليه رياسة عَكٍّ يومئذ ، وإنما كان سَمَلَّقة صاحب الحرب ، وكان رئيسهم رجلا منهم يقال له : ربيعة بن عمرو ، ولما انفضّت غسّان فى هذا اليوم مضت حتى هَبطت بطن مُرٍّ ، فتخزعت خُزاعة عنهم ، فأَقامت بها ومكثت الأَوس والخزرج بيثرب ، وخرجت قبائل غسّان إلى الشام يؤدون الجزية [٥] إلى سَليح ، وكان لهم فى ذلك حديث طويل [٦] .

وفى عكّ بن عدنان يقول سلمة بن قيس العكلى :

سيبلغُ قذفى نهشلا أن مجدها قصير وقولى شتمه وقصائدهْ
ويأْتى على الفَوْرَين دون محجَّر ويصعد فى عك بن عدنان ناشده

أَسْلُمُ

وفى قُضاعة : أَسْلم بن تَدُول بن تيم اللات بن رُفَيْدَةَ [بن ثور ابن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قُضاعة] [٧] .

---

(١) ت : « سبعا وغرس » .
(٢) أوكوها ، اى أتموها . وفى م «ونحوها» .
(٣) ت : « الفجاج » وفى م : « بن مرئ » .
(٤) ساقطة من ت .
(٥) ت : « فوردت الحرب » .
(٦) م : « يطول » .
(٧) ما بين المعقوفتين ساقط من ت .

منهم : الحسن بن داس بن مُرة بن حامية [بن غنم بن أسلم] ، قاتل غَنَمَة بن ثعلبة [بن تيم الله بن عامر بن عوف بن كنانة بن عوف ابن عذرة بن زيد اللات بن رُفيدة بن ثور بن كلب ، وكان غنمة سيد كلب فى دهره ، وكان لاتمنع أبله عن ورود أى حوض أرادته ، فأقبل ذات يوم يطرد إبله إلى حياض بنى تيم الله رفيدة . فدافعها الحسن بن داس فلما بصر به غلام الحسن أعلم مولاه وكان فى القليب أفعمها سلحها ، فقال ارفعنى إليك ، فرفعه فأخذ سيفه فقتل غنمة وخرّج هو وقومه هُرّابا » حتى وردوا على بنى كنانة بن خزيمة ، فسار بنو كنانة ابن عوف إلى بنى كنانة بن خزيمة ، وكانت أُم كنانة بن عمرو عُذْرِيةُ بنت بكر بن عبد مَناة بن كنانة بن خَزيمة ، فناشدهم بالرحم إلاأخرجتم لنا قَتلتنا ، فأخرجوهم على أن لايضرُّوهم إلى أن يبلغوا حيث أحبوا فى الأرض ، فخرجوا إلى بنى تميم ، فاستعاذوا بعوف بن كعب بن سعد ابن زيد مناة بن تميم ، وكانت أُمه قضاعية من نهد ، فأجارهم وعقد من أجلهم حلف بين تميم وكلب ، ثم أقره فى الإسلام محمد بن عُمير ابن عطارد بن حاجب بن زرارة بن عُدُس[(1)]

وجبلة بن الخَمَّة ابن إياس بن عبد الأعلم بن برشم بن الأسعد ابن حبيب بن عمرو بن كاهل بن أسلُم .

و [من أَسلمُ من تدول هؤلاء][(2)] : المقطَّعُ بن سَنْبَر بن خالد بن مالك ابن سالم بن وَهْب بن حبيب بن جُشَم بن حُبَيب بن عمرو بن كاهل ابن أَسْلُم ، الذى يقول فيه عدىّ بن الرِّقاع العامِلِيُّ :

عَلَى ذى مَنارٍ تعرف العيسُ مَتْنَه ... كما تعرِف الأَضيافُ دار المُقَطَّع

وكانت له خطَّة بالكُوفة ، وكان مِطْعاماً .

---

(1) فى نسخة ت : كأس وقد أشير فى نسخة م بعلامة الصحة .
(2) ما بين المعقوفتين ساقط من ت .

هذه الثلاثةُ الأَسماء تُقال بضَم لامها ، وماعَداها فيُقال : أَسْلَم ، بفتح اللام .

(أَسلَم) :

فمن ذلك : أَسْلَمُ بن أَفْصى بن حارثة بن عمرو بن عامر ماء السماء [1] وهو أَسلم خُزاعة .

ومنهم : مالك ونعمان ، ابنا خَلف بن عوف بن دارم بن عِتْر [2] ابن وائلة بن سهم بن مازن بن الحارث بن سَلامان بن أَسْلَم ، كانا طَليعتَيْن لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يومَ أُحد ، قُتلا فدُفنا فى قبر واحد .

ومنهم : جَرْهد بن رِزَاح بن عدىّ بن سَهم بن مازن ، كان شريفاً ، له وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم ، ورآه مكشوفَ الفخذين : «ياجَرهد ، إن الفَخذ من العَوْرة» .

. . ومنهم : الأَكْوع : واسمه سِنان [بن عبد الله بن قشير بن سنان] [3] ابن خُزيمة بن مالك بن سَلامان بن أَسْلَم [4] .

وبنوه : أُهْبان وسَلمة صحبا رسول الله صلَّى الله عليه وسلم . وعامر الشاعر استشهد يوم خيبر .

(سلْم) :

فى عاملة : السَّلْم بن الطَّمَثان ، وفى قُضاعة : السَّلْم بن خُشين ابن وَبْرة بن تَغلب بن حُلوان .

(أَبَامَةُ) :

فى جُذام : أَبَامةُ بن غطفان بن سعد بن حرام بن جُذام [مفتوحة] [5]

---

(1) فى الجمهرة (ص ٢٤٠) : « أسلم بن أفصى بن عامر بن قمعة بن الياس بن مضر » وحين عرض ابن حزم لولد افصى من حارثة بن عمرو مزيقياء (ص ٣٦٧) قال : » وقد قيل بل هم بنو أفصي بن عامر بن قمعة بن الياس بن مضر .

(2) الجمهرة (ص ٢٤٠) : « عد » . الاصابة (ت : ٧٦١٤) : « عمير » .

(3) ما بين المعقوفتين ساقط من ت .

(4) أنظر الجمهرة (ص ٢٤٠ — ٢٤١) ففى سياق النسب خلاق .

(5) ساقطة من ت .

وفى خثعم : أَبامَة وهو الأَسود بن وَهب الله بن شَهْران بن عِفْرس [مفتوحة] (١)

(أُبامة) :

وفى السّكون : أُبامة بن سَلمة بن شُكامة بن شبيب بن السكون [مضمومة] وفيه أيضاً : أُبامة بن ربيعة بن شكامة مضمومة (٢) ،

وفى قضاعة : أُبامة بن جُشم بن مالك بن كعب بن القين بن جِسْر .

(أفصى) :

فى الأَزد : أَفصى بن حارثة بن عمرو مُزيقياء . وفى جذام : أفصى ابن سعد بن اياس بن حرام بن جُذام .

وفى ربيعة : أَفصى بن عبد القيس بن أفصى . وفى إياد : أفصى ابن دُعْمِىّ بن إياد . وفى بجيلة : أفعى بن نَذير بن قَسْر بن عَبْقر.

(أعْور) :

فى شَنّ بن أفعى بن عبد القيس . واسم عبد القيس لُكيز بن أفصى ابن دُعمىّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار (٣) الأَعور الشَّنّى ، كلهم على ذلك مجمعون . [قال أدهم بن عمران : واسمه الحارث (٤) بن بشر ابن مُنْقِذ ، وهو القائل يمدح المثنى بن حارثة الشيباني صاحب فتح العراق :

ما إن رأينا أميراً بالعراق مضى ... مثل الأَمير الذى من آل شَيبانَا
كان الأَميرُ المُثنى يوم زَاحَفَهُ ... مِهْرانُ أشجعَ من ليث بخَفَّانا
سَمَا لمهران والجند الذى معـه ... فقتَّل الجمع من فُرس وجِيلانا

وفى أزد شنوءة : الأَعور الشنّىُّ من أزد شنوءة (٥)] ، واسمه جَهم بن الحارث (٦) . رأيت ذلك بخط أبى عبد الله اليزيدى عن أشياخه وأنشد له :

(١) ساقطة من ت . والذى فى مختلف القبائل (ص ٢١) : « بالضم » .
(٢) التكملة من م . (٣) التكملة من م .
(٤) السمط (ص ٨٢٧) . الشعراء (ص ٣٨) : « بشر ابن منقذ » .
(٥) زيادة من م .
(٦) فى السمط كان للأعور ولدان أحدهما جهم فلعله هو المذكور هنا .

لقد علمت عُمَيرة أن جـــارى
إذا ضَن المُثمِّرُ [1] مِن عيـــالِى

ولست بقـــائل قولًا لأَحظى
بقول لايُصـــدقه نعَـــالِى

وأَكـــرَمُ ماتكـــون علىّ نفسى
إذا ماقَلَّ فى اللَّزبات [2] مـــالى

فتُشكر [3] سيرتى وأَصون عرضى
وتُحمد [4] عند أهل الرأى حالى

وإن نلت الغِنى لم أُغْلِ فيــه
ولم أَخْصُص بجَفوتىَ الموالى

ولم أَقطع أَخاً لأَخ طريف
ولم يُذْمَم لطُرفتــه وِصــالى

لقد أَصبحتُ ما أَحتاج فيما
بلوتُ من الأُمور إلى السُّؤال

وذلك أَننى أَدَّبت نفسى
ومَا حَلْتُ الرجالَ ذوى المِحَال

وقلَّبت الأُمــور فأَحْكَمتنى
وراع بمَفرقى الوضح الفوالى [5]

الأَغْلَب :

فى عجل : الأَغْلب ، وهو الأَغلب بن عمر و بن عبدة بن حارثة ابن دُلَف بن جشم بن قيس بن سعد بن عجل.

وفى تميم : الأَغلب بن سالم ، أَحد بنى مالك بن سَعد بن زَيدمَنَاة ،

---

(١) الأمالى (٢ : ٢٠٨) : « المنمى » . (٢) الأمالى : « الأزمات » (٦٢١)
(٣) الأمالى : « فتحسن » . (٤) الأمالى : « وتجمل » .
(٥) هذا البيت ساقط من ت ولم يرد فى الأمالى .

ابن تميم [١] ، كان قائداً لأَبى جعفر على إفريقية ، وولى ابنُه ابراهيم ، افريقية لهارون ، ومن ولده آل الأَغلب الذين زالت دولتهم بأَبى عبدِ الله الحسين بن زكرياءَ الدَّاعى . [٢]

(أُدْعة) :

وفى بجيلة [٣] : أُدعة [٤] بن أنمار بن إراش .

(وَادِعة) :

وفى هَمْدان : وادِعَة بن عمرو بن عامر بن ناشج بن دافع بن مالك [٥] ابن جُشم ابن حاشد بن جُشم بن خيران بن نوف بن همدان . منهم : الأَجدع بن مالك الوادعى [٦]

(إياد) :

فى مَعد : إياد بن نزار . وفى الأَزْد : إياد بن سُود بن الحَجْر ، منهم : أبو البهاءِ الإِيادى الشاعر ، كان يمدح المهالبة : ومن قوله :] [٧]

(أُسَيِّد) :

أُسيّد – بالضم – بن عمر بن تميم .

وفى قيس : أُسَيِّد بن رزام بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان .

(أَسِيدُ) :

وكل شيءٍ بعد فى العرب فهو أَسِيدُ ، على فَعيل .

(أَفرك) :

فى بجيلة [٦] : أَفرك [٧] وهو غانم بن أَفصى [٨] بن نَذير بن قَسْر .

وفى بلى : أَفرك بن هَرِم بن هنىّ بن بَلىّ .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى م . (٢) ساقطة فى ت .
(٣) م : « جبلة » تحريف . وانظر الجمرة (ص ٣٨٧) الطبعة الثانية .
(٤) فى الأصلين : « أدعة » وما أثبت من المختلف (ص ١٠) . وفى الجمهرة .. وادعة ».
(٥) كذا فى ت وفى م : « مانع » . وفى الجمهرة (ص ٣٩٤ و ٤٧٥) : « ناشح بن واضع ابن مالك » . (٦) زيادة فى هامش م .
(٧) زيادة من م المكنية لم يذكر له شيئا من شعره ، .
(٨) فى الأصلين : « أفراى » . وما أثبتنا
(٩) فى المختلف . وفى الجمهرة : « أفرك بن نذير » .

(أَكْلَبُ) :

فى حِمْيَر : أَكْلَب – مثل أَفعل – بن سَهل بن عمرو بن قَيس .

وفى طيىء :أَكْلَب بن عمرو بن عمرو [1] بن الصامت بن غَنْمْ بن مالك ابن سعد بن نبهان ، وأَكْلَب هذا هو جد الحسن بن قَحطبة .

أَكلُب :

وفى خثعم : أَكْلُب بن رَبيعة بن عِفْرس بن حَلْف بن أَفْتَل [بضم اللام] [2] . وفى ربيعة : أَكْلُب بن ربيعة .

إلاءة :

فى الأَزد : إلَاءة – مثل عِلَاقة – بن عمرو بن كعب بن الغِطْريف [3] ابن عبد الله بن العِطْريف بن بكر بن يَشْكُر ابن مُبشِّر .

إلَةَ

وفى عَكّ : بنو إلَةَ – بوزن دِيَة – مقصور [4] بن ساعدة بن الشاهد ابن عك [5] .

أَلْيَهَةُ

وفى تميم : أَلْيَهَةُ ، وهو القُلَيْب [6] بن عَمرو بن تميم .

إلَةُ :

وفى طَيىء : إلَةُ – أَيضاً [7] مثل عِلَةِ – بن عمرو بن ثُمامة بن مالك بن جُدْعا ابن ذُهل بن دُومان بن جُنْدَب .

---

(١) وكذا فى الجمهرة (ص ٤٠٤) والمختلف (ص ٣٨ – ٣٩)

(٢) ساقطة فى ت .

(٣) بياض فى ت .

(٤) المختلف « اله بن ساعدة » .

(٥) التكملة من م وهى فى المختلف .

(٦) وكذا فى الجمهرة (ص ٢٠٧) والمختلف (ص ٣٤) وفى م : « القليت » بالتاء المثناة .

(٧) ساقطة فى م .

(أُلَةُ)

وفى طيء أيضاً : عبد الأُلَةِ – مثل عُلَةَ – بن حارثة بن عُرْتة [1] ابن صُهبان بن عَمَم بن عمرو بن سنْبِس .

(بنو إل) :

وفى حمير : بنو إل [2] ذى قتات بن مالك.

(إلْيَهَة) :

وفى النَّخع : بنو إلْيَهَة بن عَوف بن النَّخع بن جَلْد بن علة بن مذحج] [3] .

(أصمع) :

فى باهلة : بنو أصمع بن مُظهِّر بن رِياح بن عبد شَمس بن أعْيا [4] ابن سَعد بن عبد بن غَنْم [بن قتيبة بن معن بن مالك بن أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان] .

وفى طيء : أصمع بن أبى عبيد بن رَبيعة بن نصر بن سَعد بن نَبهان .

(أمية) :

فى قريش : أُميّة الأكبر ، وأُميّة الأصغر .

وفى الأنصار : بنو أُمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن مالك ابن الأوس بن حارثة .

وفى طيء : بنو أُمية بن عَدِى بن كنانة بن مالك بن تابل بن أَسْودان ، وهونَبهان بن العمرو بن الغوث بن طيء .

---

(١) فى نسخة ت عرنة .
(٢) كذا فى الأصلين .
(٣) التكملة من م .
(٤) م : « أهنا » . وانظر الجمهرة (ص٤٠٤) والمختلف (ص٤ ، ٣٣) ، وفى هامش م : « منهم الاصمعى عبد الله بن قريب واسمه عبد الله بن عبد الملك بن على بن اصمع » .
(الجمهرة (ص ٤٠٤) : « ابن ابى بن ربيعة » .

وفى قُضاعة : أُمَيَّة بن غضيَّة بن هُصَيص بن حَيٍّ بن وائل بن جُشَم ابن مالك بن كعب بن القَيْن [بن جَسْر] [1] .

وفى إياد : أمية بن حُذاقة بن زُهْر بن إياد .

(أَمَةُ) :

وفى الأنصار : أَمَة بن ضُبَيعة بن زيد بن مالك بن عَوف بن عمرو ابن عَوف بن مالك بن الأوس .

وفى قَيس : أَمَة بن بَجَالة بن مازن [2] بن ثَعلبة بن سَعد بن ذُبيان ، وإياها [3] عَنى الشَّمَّاخ بقوله [4] :

أَلَا تلك ابنة الأَموى قالت أَراكَ اليومَ جسمَك كالرَّجيع

(أَسَد) :

فى مُضر : بنو أَسد بن خزيمة .

وفى مذحج : أَسد بن مُسْلية بن عمرو بن عامر .

وفى قَيس : أَسد بن عبد العُزَّى .

وفى مذحج أَسد بن عبد مَناه بن عائذ الله بن سعد العشيرة .

وفى مَذحج أَيضاً : أَسد بن مر بن صدّأ .

وفى الأَزد : أَسد بن الحارث بن العتيك .

(الأُقروع) :

فى حمير : بنو الأُقروع ، وهم فى همدان .

---

(1) التكملة من م ، و فى هامش المخطوط : كذا بخط الحافظ زكى الدين المنذرى : غضبة ، بالغين والضاد المعجمتين وقيل هو عصية ، بالعين ، وقيل عصبة بالباء الموحدة .. وفى الجمهرة (ص ٤٥٤) : « عصية » ، وفى المختلف (ص ٣٣) : « عصبة » .

(2) ساقطة من م .

(3) ت : « واياه » .

(4) ساقطة من م .